دار الشروق



ثلاثة رجال وامرأة

إبراهيم عبد القادر المازني

ثلاثة رجال وامرأة

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٩

رقم الإيداع ٢١٤٨/ ٢٠٠٨
ISBN.978-977-09-2310-7

٨ شارع سيبويه المصرى

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون : ٢٤٠٢٣٣٩٩

فاكس : ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢) +

email: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

إبراهيم عبد القادر
المازني

ثلاثة رجال وامرأة

دار الشروق

الفصل الأول

(١)

لعل من العبث أن يحاول المرء أن يرسم بالقلم صورة لإنسان أو شيء ما ولا سيما إذا كان الكاتب رجلا والموصوف امرأة. فليس أجهل من الرجل بالمرأة ولا من المرأة بالرجل، وإن كانا يعيشان معًا، ويتحابان ـ لا أدرى كيف ؟ ويتزاوجان، ويعمران الأرض، بنسلهما، يبذران ذريتهما كالحب. ولا تسألنى كيف يأتلف هذان المختلفان، ويتواطن هذان الإنسانان ـ إن صح أن كليهما إنسان ـ وكل منهما لصاحبه لغز، لا حل له؟! فما كنت خلقتهما أو شهدت خلقهما، أو عاصرت جديهما الأعليين، حتى أدرى.

على أن التصوير بالقلم، وإن كان لا يفيد أحدا صورة واضحة المعارف بينة السمات، متميزة اللمحات ـ يتيح لكل قارئ أن يرسم لنفسه صورة، يؤلفها خياله مما توحى به الأوصاف، وكفى بهذا مغنما. والله أرحم بالكتاب من أن يجعل عناءهم باطلا وتعبهم لا خير فيه.

فلنتشجع إذن، ولنتوكل على الله الحنان المنان.

كانت الليلة ساجية طلقة والقمر متسقًا مضحيا فى سماء تبدو فى رأى العين كالمخمل، والدنيا المسحورة من نوره الواضح اللين فى فوف منسوج من خيوط سود وأخر فضية، وقد أفضلت لها فضول، والأشجار تذهب فى الهواء كأنها عمد مدهونة، وتلقى ظلها مونرا على الأرض وتعطر الجو والنوافذ، والشبابيك كلها مفتوحة يهفو منها ترجيع شجى يمتد به صوت أنثوى ينتقل من نغمة إلى نغمة فى غير تكلف أو جهد.

وكان فى حديقة البيت جوسق «كشك» سداسى الشكل مصنوع من أعواد الخشب، وقد تعلق به، وارتقى فيه، وظلله النبات. وفيه مائدة عليها بقية من لحم، وجزلات من رغفان، وقطع من مخلل الخيار واللفت والجزر والباذنجان، وقرص متصدع من جبن حالوم، وزجاجات جعة بعضها نصفان أو دون ذلك، والبعض لايزال فى الثلج وعليه سداده لم ينزع، وقد جلس إلى المائدة ثلاثة أمامهم الأقداح وقد أبطأوا لها بعد أن كادوا يمتلئون من الطعام والشراب.

وأول هؤلاء الثلاثة وأولاهم بالتقديم، وإن لم يكن أحقهم بالتعظيم ـ (عياد) وهو شركسى الأصل يؤمن بالشارب المفتول، والعين الحمراء والبرجمة فى الكلام، والزعقة الشديدة حين ينادى خادمًا أو غيره، وإن كان الجرس قريبًا، وزره يتدلى فوق المائدة من سقف الجوسق، ولا نحتاج أن نقول: إنه شخص لحيم، وأنه شديد الوطء على الأرض، وأنه لا خير فيه ولا شر، إلا أن يجىء الخير عفواً، أو يجىء الشر من قلة العقل أو النفخة الكذابة.

والثانى فى هذا المجلس ـ الأستاذ حليم. وهو مدرس قديم ناهز الخمسين وآثر الراحة، فاعتزل العالم مكتفيًا بدخل خاص يسير، ومعاش يقبضه كل شهر من الحكومة وهو قاعد، وهو ضاوى الجسم خفيف اللحم، معروق الوجه، دقيق عظام اليدين والرجلين، يأكل كثيراً ولا يرى أثر ذلك عليه فى بدنه، وحديث طويل؟ فلنرجئه إلى أوانه.

والثالث ـ شاب فى العقد الثالث، بتع شديد المفاصل، سريع خفيف، حسن الصورة، بياض وجهه تعلوه حمرة، وعلى جلده نمش قليل، وهو خطيب (محاسن بنت عياد)، وقد آثره على غيره لبياض وجهه، زاعمًا أن هذا يسلكه مع الشراكسة والأتراك، ويرفعه عن طبقة الفلاحين الغبْر الوجوه، وإن كانت الحقيقة أنه فلاح ابن فلاح، جلا عن قريته بَعد أن أضاع أرضه فيها؛ فشب ابنه حضريًا صرفًا وقاهريًا محضًا، وتعلم الهندسة وفاز بوظيفة فى الحكومة، واسمه فى شهادة الميلاد (محمود)، ويدلله أهله تدليلاً سمجًا فيقولون «حودة» ومن الإنصاف أن نقول: إنه يستسخف هذا الاسم. وكان يثور على من يدعوه به، ثم رأى أن هذه حكاية شرحها طويل؛ فاكتفى بأن لا يجيب كأن المنادى غيره.

وكان عياد أكولا شريبًا. ولم يكن هذا يعنى أحدًا سواه. ولكنه كان إذا آكل أحدًا أو شاربه؛ لا يزال يحضه، ويستحثه، ويزين له الطعام ويغريه به، ويوالى عليه الكأس دراكًا، وكان من السهل على (محمود) أن يسايره؛ فإنه شاب قوى لا يتعذر عليه ـ بل لعله يباهى بأنه يستطيع ـ أن يكثر مخلطًا من صنوف الطعام مستقصيًا

لها، أما الأستاذ حليم: فكان رجلاً قد كبر؛ فهو يؤثر أن يكون زهيدًا لا يأكل إلا دون الشبه، ويأبى له ما عودته مهنة التعليم من المحافظة على وقاره واحتشامه، أن يشرب حتى يتطرح. كان إذا ألحف عليه عياد يرفع الكأس ويمليها على فمه، فعل الشارب، ثم يردها وما حسا إلا قطرة أوبلة ريق، على حين يعب عياد العبة الروية ويضع الكأس كأنما يدق بها المائدة ويقول: (آهح) ممطوطة ممدودة. وكان هذا دأبه حين يشرب: يعكف على الشراب جزافًا غير حافل بالكيل كأنما هو فى سباق أو رهان ولا يرضيه إلا أن يرى غيره عاكفًا مثل عكوفه. فإذا استأنوا، كبر فى ظنه أنه أقصر فى التحفى والإكرام. وكان واسع الخلق لا يدع عنده شيئًا من الجهد فى إكرام ضيفه، ويجد فى انبساط نفسه بالكرم راحة ولذة وزهوا ولكنه كان إذا شرب يثقل على ضيفه ويضجره بالإلحاح عليه أن يقبل على ما قدم له.

وعبثًا؛ كان الأستاذ حليم يقول لعياد: «ياأخى كن منصفًا. إن معدتى حوصلة دجاجة، فأين تريد أن أدس كل هذا الطعام والشراب؟! وهو لو وضع فى كفة ميزان ووضعت أنا كلى بما على من ثياب فى كفة أخرى؛ لرجح على».

فيقول عياد وهو يلمس شاربيه المصمغين - أو هكذا يخيل إلى المرء فما كانت شعرة واحدة تنفلت عن محلها فى هذين الشاربين المبرومين، بل المجدولين، أو تنطفئ لمعتها - «كلام فارغ. أنا والله رأيت شابًا أصغر منك جسمًا يأتى على قصعة فت ويجرفها جرفا وكانت لأربعة، فسبقهم إليها ومسحها ولحسها».

فيقول الأستاذ حليم : « . . نعم . . معدة جديدة قوية تحتمل الكظة . ولكن معدتى طاعنة فى السن ، فهى أشبه بمخلاة قديمة . هات لى معدة فتية وأنا أريك كيف أقش وأجرف . »!

ولكن عياداً يأبى أن يقتنع ، بل يأبى أن يجعل باله إلى ما يقال أو يسمح للحجة بأن تدخل رأسه وتكلفه عناء التفكير فيها ؛ لأن معدته هو ، هى المحك ، والمقياس حجة ، وما دامت هذه دائبة كالعصرين من دهره فى غير كلال أو فتور ؛ فلا عذر لمعدة أخرى إذا قصرت أو ونت ، ولو كانت أقدم من هرم خوفو أو جبل المقطم .

وكان التطريب الذى قلنا إنه كان يهفو فى تلك الليلة الساكنة الضحياء إلى الجلوس فى الحديقة ، مصدره محاسن : وهى فتاة غضة السن صغيرتها تدلف إلى العشرين . ولكنها فيما يرى أبوها عياد قد صارت إحدى المصائب الكبرى ، وكانت دقيقة الطول ممشوقة القد ، أو نحيفة إذا اعتبرت خفة اللحم على الذراعين والصدر والبطن ، ولكنها كانت عريضة الألواح كالغلام ، وثدياها صغيران وإن كانا راسخين كالكمثرى الصغيرة ، وحلمتاهما ناشزتان طويلتان وحولهما من السواد أكثر من المألوف فى العذارى ، كأنما كانت قد ولدت وأرضعت ، فأما محياها فأسيل الخدين وإن كانا متهضمين قليلاً ، وأما شفتاها فرقيقتان جداً ، يفتران حين تبتسم عن ثنايا عذاب ، إلا أنها ليست بالناصعة البياض ؛ لإفراطها فى التدخين بكره أبيها ورغمه ، وأما عيناها فنجلاوان ظمياوان ، ولكنهما تبدوان حين يعروهما فتور ، أو

كمد، أو اضطراب ثابتتين، ويخيل إليك أنهما أظلمتا. وكان حاجباها سابغين مهللين كأنهما خطا بقلم، وجبينها عريضا واسعًا، وشعرها أسود فينانا فى طول واسترسال ونعومة، تفيئه كيف شاءت بغير احتفال أو عناء. وكانت تؤثر أن ترسله ولا تجمعه.

أما أنها إحدى المصائب الكبر فذاك لأنها عرفت من سيرة أبيها ما كان يكره أن تعرف هى أو أمها، ولكنها كتمت سره واكتفت بإذلاله به؛ فأرخى لها الحبل على الغارب؛ فركبت رأسها، ولم تعد تحفل بغير أمها. وكانت هذه ضعيفة بطيئة الجسم والعقل معا، لا متصرف لها ولا حيلة عندها.

على أن الفتاة لم تكن سعيدة بهذه الحرية ،أو موفقة فيما تعالج أو تدبر أو تطلب من الأمور. وقد ورثت عن أبويها ضعف الرأى، وقلة الإحكام للمراد والاستعداد للرضى بالكلام، والاستنامة إلى كل أحد، وشيئا من الزهو والغطرسة والميل إلى التظاهر والتفاخر بالباطل أو بأكثر مما هناك.

وكان جانب الغفلة فيها يكاد يلقيها على المعاطب، فلا يقيها إلا بقية حذر مستفاد من الكبر الموروث والأنفة أن يقال: غوت وضلت بنت عياد، ومما أكسبتها الحرية من اعتياد الاعتماد على نفسها فى أمورها وإيقاظ ما فى رأسها من عقل ليعينها ويمدها بالرأى فيما هى ماضية إليه. على أن الأرجح أن هذا كله ما كان ليجديها ويحميها لولا أن ساعفها حسن حظها.

على أن حسن الحظ أمر نسبى. فقد كانت حسنة الحظ إذا اعتبر

ما آلت إليه فى كل مرة من السلامة . ولكنها كانت سيئة الحظ إذا اعتبرت أن أملها خاب فى كل مرة حتى كادت تصير إلى اليأس من كل ما تطمع فيه وتحرص على إدراكه . فاضطربت أعصابها وأتعبها وأقلقها قلبها بنوبات من الخفقان الشديد لا مثير لها إلا هذا الاضطراب . وقللت طعامها لازهادة فيه ، ولا عن ضعف اشتهاء له ، بل من الضجر والحيرة وقلة التوفيق وكثرة الإخفاق وخفاء ما ينعش من العثرات ، ويصلح هذا البخت المقلوب .

وزاد الطين بلة لما تعلق أبوها بحسانة يهودية راح يحملها معه إلى المصايف والمشاتى ، ويزعم لأهل بيته أنه مندوب لمهمات تستوجب هذا السفر والغياب ، فأنزفت هذه «المهمات» أكثر ماله . وقتر على أهله فى النفقة ، وأصارهم إلى ضنوكة غير معهودة وإن كانت فى ذاتها محتملة ولكن وطأتها ثقلت بالقياس إلى ما كان من السعة ، وشق على محاسن أن تلقى نفسها تروم الشىء فلا يتهيأ لها ، وأنها اضطرت إلى الكف عن التعلم ، وكان مرجوها أن تواصله حتى تبلغ به مناها ؛ فتصبح شيئًا له قيمة واستقلال فتفيد بذلك مزية تضيفها إلى مزايا الحسن والشباب وكرم الأرومة ، فقد كانت تعتز بأرومتها الشركسية وإن كانت رقة الحال قد خففت من غلوائها وطامنت من كبريائها .

وكان كل هذا ، مضافا إلى ما يهتف به شبابها ، وما تجده من الرغبة فيها والإقبال عليها ؛ ربما أغراها بالإطماع فى نفسها دون التمكين ، فاعتقد الشبان الذين اتصلت بأسبابهم أسبابها ـ نوعا ما ـ أنها مخادعة عابثة ، تظهر خلاف ما تبطن ، وتعطيهم باللسان ما

ليس فى القلب، وتجـريهـم وراءها لتلهـو بهم وتسـخـر منهم، فانصرفوا عنها ساخطين محنقين، وبسطوا ألسنتهم فيها فطارت لها سمعة لا تطيب لامرأة، وإن لم تكن من الحق فى شىء.

ومع ذلك خطبها غير واحد قبل محمود، فأما أول الخطاب، فعلق خطبته على شرط أن يزوج أخته، وكانت تصغره؛ لأنه كان أبر بها من أن يختص نفسه بنعيم الزواج دونها، ولكن عزوبة الأخت طالت فضجر عياد أفندى ومحاسن، ونقضا الخطبة.

وجاء ثان من إخوان عياد أفندى وجلسائه وسماره، ولم يخطب البنت، ولكنه تحبب إليها، وصفت هى إليه بودها؛ فقد كان أنيس المحضر لطيف الفكاهة سخى اليد، وخيل إلى عياد أفندى وامرأته أن المسألة مسألة أيام، ولكن الأيام والشهور تقضت وهو لا يزيد على التودد ولا يجاوز ما يبدو من إقباله، إلى الخطبة والطلب، ولا حتى إلى الوعد، ومازالت نيته مضمرة، لا يتحدث بها أو يكشف عنها وإن كان لا يكف عن إظهار المودة والإعجاب، والغيرة أحيانا.

ثم كان محمود، وهو يحبها ولا يجهل ما قيل فيها وشاع عنها، وكان يعلل هذا بأنه قدح شبان لم ينالوا منها منالا؛ فذهبوا يشنعون وللذى قالوا فيها أدعى إلى فخرها، وبحسبها أنها امتنعت عليهم واستعصت على المغريات ـ ولكن أشياء بقيت مع ذلك تحك فى نفسه وتدور فى صدره، ولا سيما حين يرى قلة مبالاتها بما يكون منها كأن تذهب إلى السينما مع رجل لم تعرفه إلا فى يومها، بل قبل ساعة واحدة من الاقتراح، أو حين تقبل على

الأستاذ حليم إقبال الألفة والثقة وتسارره وتضحك، ويساررها ويبتسم، كأن بينهما ما يكتمان أو ما يتساقيان تذكره.

ولم تكن محاسن تبادل محمودا حبا بحب، بل لعلها لم تكن تباليه أو تعبأ شيئا بإقباله أو إدباره، إذا صح ما كانت تفضى به إلى الأستاذ حليم حين يخلو لها وجهه، ولو كان محمود حصيفا؛ لكان الأرجح أن يسلس فى يده قيادها، ولكنه أثقل عليها ونفرها بأن كان عيابة لا يزال يقع فيها ويذكرها بما يشنع به عليها أهل الحى وعارفوها من غيره، ولا ينفك يسمعها من الكلام كل سوَّار يأخذ بالرأس، كلما رآها طاشت أو نبت فى العنان. فتثور به، وتكايله، وتقول له أوجع مما قال لها؛ فتقع الجفوة وتحل النبوة ويفسد الحال، ويعجز عياد أفندى عن إصلاحه؛ فيستجير بصاحبه الأستاذ حليم، فيشكره محمود وهو كاره وفى قلبه غيرة تضطرم، لما يراه من سلطانه عليها وطاعتها له.

(٢)

وكان أمر الأستاذ حليم عجبا. وهو رجل يتمثل فيه «نقص القادرين على التمام»، كما يقول أبو الطيب، فقد كان محيط علم، وكان إلى علمه فهما نجيبا و «لوذعيا يرى بأول ظن آخر الأمر من وراء المغيب» ومع ذلك أبى أن يكون أستاذا فى الجامعة وآثر الإخلاد إلى الراحة. ولو شاء مع الراحة وخلو الذرع وانفساح الوقت لجاء الناس بجناة طيبة وثمار يانعة من شجرة علمه المحلال. ولكنه ترك الخلفة واللحق من ثمرها يهمد فى

موضعه ولا يدرى أو ينتفع به الناس. وكان ماله كافيا للسعة والخفض ونعيم البال ولكنه كان يعيش عيشة الشظف والضيق، كأنه مخفق مخف من المال أو مسكين، وكان أخوف ما يخاف الفقر والحاجة، فهو يضيق على نفسه وأهله خشية الضيق.. وكان معافى فى بدنه ولكن طول إكبابه على التحصيل ومواظبته على الدرس والمطالعة مع قلة الطعام وسوئه، أورثاه ضعفا فى جسمه، وفسادا فى معدته وحشاه، وتلفا فى أعصابه، ومع ذلك لا يستشير طبيبا ضنا بأجرته وثمن الدواء، واكتفاء بما يصفه له إخوانه من العقاقير «البلدية»، مثل المصطكا والحنتيت وما يجرى هذا المجرى؛ فلم يصح قط مما به.

ووقع له فى عنفوان شبابه مازاد تلف أعصابه. فقد أحب جارة له معلمة مثله. وكانت ذات حسن وشورة، طيبة النفس ضحوكا وأريبة، موثوقا بفضلها وعقلها. ولكنها كانت أيضا ذات فلسفة وعناد. وأحبته سميحة كما أحبها، غير أنها لما عرض عليها الزواج ترددت وسوفت وكانت تقول لأختها كلما جادلتها ونهتها عن هذه المماطلة التى لا خير فيها ولا حكمة: «إنى أحب الأستاذ حليم ـ أحب مظهره ومخبره؛ فإنه سمح واسع الأفق رحيب النفس، وأحب مشيته التى لا تكلف فيها ولا جهد، وأحب صوته ونبرته المرتعشة، وأحب فوق ذلك لمعة عينيه وذلك الإدراك التام الذى لا أخطئه فيهما حين أنظر إليه، ولكن هناك شيئا يخيفنى.. لا أدرى ماذا.. وإن فى نفسى لشكًا عجيبًا، فأنا أحبه، ما فى هذا شك، ولكن أشك فى قدرتى على مبادلته حبه لى، فإنه عميق

مستغرق ويفزعنى شكى هذا؛ فأحس كأنى أتحسس فى الظلام باحثة عما لا أدرى. . . ».

وأخيرًا، تم الزواج.

وقالت لها أختها ليلة الجلوة، وكانت أحكم طبعا: «إن فى حليم كل مشتهى المرأة، وأعتقد أنك ستكونين معه سعيدة، ولكنى أرجو أن تذكرى دائمًا أن عليك أنت بذل أقصى ما يدخل فى طاقتك لإسعاده؛ فإن على المرأة أن تمنح بعلها فوق ما ترجو وتتوقع أن يمنحها».

وكان هذا أشبه بالإنذار أو التحذير. وكانت سميحة تريد إسعاد حليم، وقد أسعدته. ولكنها كانت تبدو شاردة ساهمة كأن بها شيئا، ولم يفت صواحبها هذا، ولكنهن حسبنه من نشوة السعادة، فرحن يركبنها بالفكاهة وهى لا يسعها إلا أن تبتسم متكلفة، فما كانت تستطيع أن تصارحهن بأنها دهشة فزعة، وأنها تخاف شيئا مجهولا خفيا لا تدرى ما يهجم عليها منه.

وقال لها حليم لما انفض الجمع وخلا بها: «إنك مازلت طفلة، وسيكون عليك أن تعرفى الحياة وتفهمى معناها. وإنه ليسرنى أنى سأكون معلمك»!

فأحست أن هذا تأنيب، فكأنه قال لها: إنه وجدها دون ما كان يتمثل ومن أجل هذا يتكلف هذا التعليل لما تبينه من النقص، ولعل الأرجح أنه لم يكن يدرك ـ ولا هى أيضا ـ إنها كانت غير ناضجة من الوجهة الجنسية، وكان شعورها بنقص ما فيها يرتسم

على وجهها؛ حتى لقد قال لها بعد يومين من زواجهما: «ألا تستطيعين أن تبتسمي لزوجك؟ أتذكرينني؟! إنني الرجل الذى شرفته بأن تكوني امرأته».

فأكرهت وجهها على الابتسام لتستر ما يخالجها.

ثم استقرت الأمور واضطردت الحياة على نحو لا شذوذ فيه عن المألوف. وجاء يوم أحست فيه بدوار واضطربت معدتها ونهضت فاستشارت طبيبا، ثم عادت تحمل أشياء مما يعد للولدان. فلما رأى حليم ذلك أبرقت عينه وسألها: «ما هذا؟»! قالت: «لولدك»؛ فجمعها فى ذراعيه مترفقا، وقال بصوت خفيض كالهمس: «أنت والولد.. هذا كل ما ينشد رجل من دنياه».

وكانت تحدث نفسها أنها ينبغى أن تكون سعيدة. وتحاول أن تعتقد أنها كذلك. ولكنها على فرط ما جاهدت، لم تستطع أن تتخلص من ذلك الخاطر المخامر الذى كان لا ينفك يقول لها: «إن الزواج غير ما كانت ترجو وتتخيل».

وطال عليها الانتظار وثقل. وملت استشارة الطبيب كل بضعة أسابيع واجتوت الطعام الموصوف، وتقززت عنه، وشقت عليها إدارة أمور البيت وتكلف البشاشة وهى تحس أن أعصابها كالشوك الحديد. ثم جاءها المخاض فى منتصف الليل؛ فذعرت وأيقظت حليما. وأصرت أن ينقلها إلى المستشفى.

وآلت سمحية أن يكون هذا آخر طفل تلده.

وأقبل عليها حليم ذات ليلة يقول : «لقد كنت جميلة قبل أن تحملى ولكنك الآن . . لا أدرى . . كأنما تم حسنك . . لا أعنى أنه كان ناقصًا ، وإنما أعنى شيئًا جديدًا يخوننى التعبير عنه» .

فقالت : «هذا خيال . . لقد طال سقمى حتى نسيت كيف كانت هيئتى قبل ذلك» .

قال : «كلا ، فإن لك لوضاءة . وإن بشرتك لتبدو لى كأنها من الشمع ، وأنت الآن زهرة يانعة ، وكنت قبل ذلك كما» .

وانحنى على الطفل وداعب راحته الصغيرة المطبقة بإصبعه الكبير ، ثم التفت إليها ، وقال : «هذه بداية طيبة . وإنى لأرجو أن يكون إخوته وأخواته مثله صحة وصباحة» .

فقالت له وهى مقطبة : «اسمع إنى لا أريد أن أجيئه بإخوة أو أخوات . هذا حسبى . وهو الأخير ، فاعرف ذلك» .

فقال : «لا أظن أنك جادة . . وبعد السعادة التى فزنا بها . . . »!

فقالت : «التى فزت أنت بها» .

وأصرت على أن تنقل سريرها ، ومهد ابنها إلى غرفة أخرى : كأنما كان هذا لا بد ولا غنى عنه ، أو كأنما أرادت أن يكون مظهرا حاسما لعزيمة ماضية وإرادة حذاء .

من ذلك اليوم صار الأستاذ حليم ، كأنه مقيم فى فندق لا يربطه بمن فيه غيره سوى الجوار . وفقد لفظ الأسرة معناه ، والزواج مدلوله ، وانطوى الرجل على نفسه ، ولاذ بمكتبته ، وانزوى فيها

ولـم يقصر فى مناشدة سميحة أن تفىء إلى القصد، وأن يفهمها أن اتقاء الحمل لا يقتضى هذا الذى هو فراق فى حقيقته، ولا يمنع أن يعيشا زوجين، وإن كان لا محيد عن الحذر واتخاذ ما يشير به الطبيب من الحيطة الوافية. غير أنها أبت كل الإباء أن تكون له أكثر من جارة، فقطع الأمل وأضمر اليأس، وصار يتشمم ولا يذوق، ويشتهى ولا ينتهى له اشتهاء، ويجزع على الحرمان ويضنيه جهد التصبر والتجلد، ولا يجد السلوة وطيب النفس عن الزوجة العصية إلا بالخيال يلجأ إليه، والكتاب بين يديه أو على ركبتيه؛ فيزوده ويغنى خياله بصور مما يتلهف عليه من المتع التى فاتته بعد أن ذاقها واستطابها. واعتاض ذلك مما حرمه، على إغراقه فى الرغبة فيه والطلب له حتى صار ذلك له عادة وديدنا.

وكان ذلك فى البداية أشبه بأحلام اليقظة. فكان يجلس فى حجرة كتبه، ويتناول كتابا يفتحه بين يديه، كيفما اتفق، ثم يذهب يحاول أن يحضر إلى ذهنه صورا مما استحلاه فى حياته الزوجية، ولم يكن يتمثلها على حقيقتها، وكما كانت أو وقعت، بل كان يتلكأ عند بعض مناظر هذا الشريط الوهمى، ويتريث، أو يستوقفه؛ ليطلى متعته به، أو يؤكده، ويبالغ فى إبراز الصور ويعمق ألوانها أو يخففها على هواه، ويحسنها على العموم ويطمس أو يحذف جملة ما لم يكن يرتاح إليه. غير أن هذه الصور المستمدة من حياته مع سميحة كانت لا تخلو من تنغيص؛ لأن سميحة لم تكن تثبت فى علاقتها به على خلق واحد، ولا كانت تعنى بأن تبدى له اللطف والرقة والإقبال أو اللين

والمراضاة. ولعلها لم تكن تستطيع ذلك؛ لدخل فى أنثويتها، وكانت معه فى الأكثر والأغلب على حال المستسلم على كره ومضض، المزدرى لما يضطر إليه، لا على حال الراغب المبتهج ببلوغ سؤال نفسه، فيبوخ مرة وتصيبه من بادى ضجرها وجفوتها، قرة تتركه مع ذلك يتفصد عرقا.

من أجل هذا لم يلبث الأستاذ حليم أن زهد فى هذه الصور التى يشوبها ويشوهها من كل ناحية ما ينفر منها. ولكن من أين له بصورة أخرى ولا عهد له بسواها؟! وألفى نفسه عاجزا عن خلق شىء من لا شىء، أو الإبداع من غير توليد. وأبت صحراء تجاربه إلا أن تظل سباسب، يسبر طولها ولا يلفى سوى رمضائها متقلبا له فيها؛ فاشترى مجهرا قوى العدسات، وكانت الحجرة التى اتخذها مكتبا على الطريق، فصار يوارب الشباك وينظر بالمجهر من الفرجة التى بين المصراعين، وكانت أمام البيت محطة للترام، وعلى كثب منها محطة للأتوبيس، وقلما يخلو الرصيفان من فتيات أو نسوة ينتظرن؛ ليركبن ويتلفتن يمنة ويسرة ويمشين خطوات من القلق أو الملل، فتبدو له صدورهن وجنوبهن وسيقانهن، كأوضح وأقرب ما تكون بفضل المجهر، فإذا جاء اليل وخلا بنفسه؛ حاول أن يتمثل الصور التى رآها فى نهاره، واعتاد من جراء هذا ـ حين يكون على الطريق أو فى الترام ـ أن ينظر إلى كل سيدة أو فتاة وهى مقبلة، ثم وهى مدبرة، ولكن الفتيات الناهدات كن أحب إليه؛ لأنه وجد أنهن أقدر على ابتعاث نفسه وتحريك شعوره المكبوت، وعلى الرغم من إقباله على النظر

وطول تحديقه فى القدود، كان يجد عناء فى إحضار صورهن إلى نفسه فى خلواته؛ فقد كانت القدود المتخيلة تختلط وتتداخل ويتسرب بعضها فى بعض فيزوغ بصره، ولا يستطيع أن يتشبث أو يحتفظ - على فرط التوضيح - بصورة قوام واحد لا يموج أو يضطرب أو يتداخل فى غيره؛ فيعود وكأنه ناظر إلى إحدى تلك المرايا التى تشوه الشخص فتجعله كله رأسا أو كرشًا وتفعل به غير ذلك من المسخ للتسلية.

ولم يكن الأستاذ حليم همه التسلية، وإنما كان همه سد خلة حقيقية وإخماد ضرم يشتد منه حر جوفه من طول الفطام، وكان لفرط حيائه، ولما نشأ عليه من الاحتشام والتعفف، ولبخله أيضا، لا يخطر له ولا يقدر حتى لو خطر له أن يتخذ له خليلة، أو أن يعرف إحدى هؤلاء الطوافات اللواتى ينقدن لمريدهن ويقررن لما يصنع بهن، أما الزواج بأخرى غير سميحة، فمسألة ليس فيها مجال للنظر.

وعلى الأيام صارت أحلام يقظته مقرونة بأحلام منامه وكانت أحلامه فى أول الأمر ممعنة فى الغمض، فإذا استيقظ لم يجد ما يذكر منها، وكان معظمها يدور على ما تشتهى نفسه ولا يجد الوسيلة إليه، ثم برز من بينها حلم صار يتكرر من حين إلى حين، ويزداد مع التكرار وضوحا وجلاء حتى كأنه خاطر مخامر وسر هو به؛ فراح يعيده على ناظره فى يقظته: ذلك أنه كان يرى نفسه فى منامه يلتقى بأنثى على صورته هو، وكانت تشبهه فى كل شىء إلا فى الدمامة وفيما يتميز به رجل من امرأة، فكأنها العنصر الأنثوى

الذى لا يخلو منه كيان رجل قد انتزع وتجسد بشرًا، وكان الأستاذ حليم قد آض بذلك إنسانين: واحدا مكتملا يجتمع فيه ويتسق عنصرا الذكورة والأنوثة على نسبة ما - فى اليقظة - وواحدا ينشطر فى المنام شطرين منفصلين ذكرا وأنثى، متحابين متواصلين متراضيين متوافقين على الاستغناء بنفسيهما عما عز مطلبه فى حياة اليقظة وثقلت عليهما وطأة حرمانه، فلا حاجة به بعد ذلك إلى تألف النافرة منه أو مراجعة الممسكة عنه.

وكان أطيب ما وجد من هذا الحلم الذى طال ترداده حتى صار عنصرا ثابتا فى حياته الخاصة المحجوبة - أنه كان يفيد منه شعورا مزدوجًا؛ أى شعور عنصرية المتبديين فى المنام، فازدهاه ذلك، وخيل إليه أنه بذ الرجال الذين لا يرون ما يرى، بوجدانه ما لا يجدون بفضل هذا الازدواج فى شخصيته، وأدرك ما يستطيعون أن يدركوه ولا تخيلا.

على أن هذا كان ربما أقلقه وأزعجه؛ فقد كان يخشى أحيانا أن يكون مظهر شذوذ منكر، أوآية ضعف، أو عرضًا لمرض، وكان كثيرًا ما يهم أن يعرض أمره على طبيب؛ فيصده الحياء إذا لم يصده البخل، ويعود فيقول لنفسه: إنه ليس من فعله وأنه يحدث له عفوا، وفى منامه حين يضعف سلطان الإرادة أو يستقل العقل الباطن عن العقل الواعى، وأنه على كل حال لا حيلة له فيه ولا قدرة له على منعه، ثم إنه لا يرى منه ضيرا، فمازال هو هو فى حياته العامة وعلى العهد به مع الناس وما أنكر الناس منه شيئا، ولا بدا عليهم أنهم يفطنون إلى هذا التحول الباطنى الذى اعتراه،

بل ليس هناك ما ينبئ أنهم واقفون على حقيقة ما بينه وبين امرأته، فقد كانت هى بادية السعادة بما صارت إليه من الرهبانية، وبولدها الوحيد الذى لا تبغى من الولد غيره.

غير أن هذا لم يطمئنه، وكيف السبيل إلى اطمئنان من لا يدرى ومن لا يزال يقول فى صفة حاله وفى تعليلها، وفيما عسى أن يكون لها من آثار بالظن والتخمين؟! وقد ألح عليه خاطر أفضى به إلى ضعف محسوس؛ ذلك أنه قال لنفسه: «إن تمثل عنصر الأنوثة فى الرجل ـ ذلك الشطر المكنون أو المغلوب على أمره فى اليقظة ـ فى المنام له بشرا ليس بالأمر المألوف أو الشائع وإن كان العلم لا يعيا بتفسيره، والعنصران ـ الذكورة والأنوثة ـ مندمجان لا ينفصلان، وتفاعلهما على نسبتهما فى كيان الرجل هو الذى يكسبه شخصيته الخاصة وما تتميز به من خصائص القوة أو الضعف أو غير ذلك، وهما كموجتين غابت إحداهما فى الأخرى؛ فصارتا موجة واحدة، وكلا لا يتجزأ، أو كمصباحين متفاوتين اجتمع ضوءهما؛ فالنور المنبعث منهما معا وحدة وجملة، يستحيل أن تتبين معظمها من أقلها، فإذا أمكن انفصال هذين العنصرين فيما يحس الرجل ولو فى منامه ـ أفلا يكون هذا تصاعدا فى كيان، وإن بقى ثابتًا متماسكًا فيما يرى ويحس فى اليقظة؟! وإذا أمكن أن نتصور تيارا مغناطيسيا يلم ذرات أحد العنصرين ويجمعها ويعزلها عن ذرات العنصر الثانى، أفلا يكون مؤدى هذا نقض الشخصية التى كان قد أثمرها اتحاد العنصرين واندماجهما؟! واقتنع الأستاذ حليم بهذا المنطق، وراح يقول

لنفسه : «إنه كان كائنا حادثا من امتزاج عنصرين وتزاوجهما، فصار ينقصه على الأقل متانة الامتزاج» . فهو كالبناء المتصدع المشفى على الانهيار . ولا مفر من أن تحدث هذه الركاكة الطارئة فى بناء الإنسان : ركاكة فى قوته وفتوراً فى قدرته على العمل والاحتمال ورخاوة وقلة غناء . ولم يمنعه أن يقتنع بهذا أنه فى يقظته يبدو كما خلقه الله ولا نقص أو تهافت فيه ولا تغير . فقد قال لنفسه كأنما كان مغرى بإقناعها : «إن كل ما بين اليقظة والنوم من الفرق أن سلطان العقل الواعى يفتر فى أثناء النوم وأن الإرادة تضعف؛ فيسع ما وراء الوعى أن يتبدى، والأحلام راجعة إلى هذا فدلالتها عظيمة، ومن الضلال والحمق الاستخفاف بها أو إهمال أمرها» . وهكذا ظل يلح على نفسه بهذا وما إليه حتى أيقن أن به ضعفًا جنسيًا لا مراء فيه ولا حيلة، ووطن نفسه على ذلك؛ فسكنت أعصابه إلى هذا اليقين لطول ما ألح فى رياضتها عليه .

وكان فى وسعه أن يريح نفسه ويستعيد الثقة بها والاطمئنان إلى سلامته وبرئه من هذا الضعف، لو قصد إلى طبيب . فما خلق الله الأطباء عبثا، ولكن حياءه وبخله أبيا إلا أن يغرياه بالتفلسف على نفسه حتى فسد الأمر .

ومن الغريب مع ذلك، أن حياءه لم يمنعه أن يسر إلى صديق له أنه يجد نفسه فى هذه الأيام فاترا لا نشاط له؛ فزعم له صديقه أن هذا طبيعى؛ لأنه يعيش بين الكتب لا فى الدنيا . وجره معه مرة إلى مجلس لهو، لا كلفة فيه عليه؛ فألفى نفسه أميل إلى الصغيرات منه إلى غيرهن، وآنس بهن وأقدر معهن على إرسال

نفسه على السجية . وتناسى ما يعانيه من توهم الضعف .

ولم يتجاوز الأمر حد المؤانسة والمجالسة والمفاكهة . ولكن الأستاذ حليم انصرف من هذا المجلس وهو يعتقد أن علاجه أن يلتمس مجالسة الفتيات الصغيرات فى خلقهن وأسنانهن ؛ فإن الدقة فى خلقهن توحى إليه معنى القوة ، وصغر سنهن يشجعه ويرد إليه الثقة بنفسه لغرارتهن وقلة تجربتهن - على الأقل نسبيا . وسره أن فتح الله له هذا الباب وهيأ له مخرجا يعفيه من ثقل وطأة الشعور بالضعف . وما من أحد إلا وهو ينشد القوة والبأس والسطوة ، أو يدعيها على صورة من الصور ، إذا لم تكن مما وهبه الله وآتاه . وقد كان حسب الأستاذ حليم ما آتاه الله من العقل والعلم . ولكن ذلك الضعف الحقيقى أو المتوهم كان يثقل عليه وينغص عيشه ويأخذ على عقله كل متوجه ، بل هو الذى كان يوحى إليه ما يصدر عنه من قول أو فعل . فهمه فى حياته أن يداريه ، أو يعوضه إذا أعياه أن يتغلب عليه أو يقويه .

وقد انتهى به المطاف إلى محاسن ؛ لأنه شام منها عقلا وفطنة تعرف بها قدره وغرارة تجعلها تتطلع إليه وقد طمست شهرته العلمية ضعفه الخفى ، وتحيل القليل منه كثيرا عظيمًا فى نظرتها . وآنس منها ثقة به .

أغراها بالبث والقول بشجوها ، ومصارحته بأخفى الأسرار . وكانت تجد من بساطته وحسن فهمه وسرعة فطنته وإقباله عليها مع سنه وأدبه ما يسهل عليها ذلك ؛ فاتخذت منه قسيسًا تعترف له ، واتخذ هو منها تلميذة ، وارتضت هى ذلك المحل . فأقبل

عليها يعلمها ويعرفها بالحياة وهو جاهل بها . أو لعل الصحيح أنه كان يمتحن فيها نظرياته وآراءه . وقد يكون الأصح أن نقول : « إن نوع استجاباتها له كانت دروسًا يتلقاها عنها ويستفيدها منها » .

ولم يكن أعجب من منظر هذا الأستاذ الضاوى المعروق الذى جلله الشيب أو كاد وهو يتأبط ذراع هذه الفتاة الصغيرة ويرتاد بها منازه المدينة ولم يكن فى منظرهما أو حالهما ما يدل على علاقتهما ؛ فكان الذى يرى وقار الشيب واحتشام الرجل ويؤثر حسن الظن ؛ يحسبها بنته . والذى يرى رقته لها وتحفيه بها وضحكه إليها ولطفه فى مخاطبتها ، يستريب وينكر . أو يتردد على الأقل بين طرفى الاعتقاد غير قادر على الترجيح أو الجزم .

وكان إذا لقى - وهى معه - بعض زملائه القدامى ، لا يضطرب ، ولا يتكلف بل يقول لصاحبه فى بساطة «بنتنا محاسن» ، ويبتسم . فينصرف الرجل وأكبر ظنه أنها بنت أخ أو أخت .

على أنه كان يؤثر المكان البعيد الذى لا يطرأ فيه عليهما من يعرف ومن لا يعرف . وكان فى ضاحية نائية ، فيقصد إليها بها فى آخر النهار . ومعه زجاجة صغيرة مبططة كانت لدواء ، فيها شراب . حتى إذا بلغه وجد عبد الفتاح بائع القازوزة ، فألقى عصاه عنده ويجيئهما عبد الفتاح بكرسيين ، وبالثلج والماء لشرابهما ، وبخبزات مستديرة يابسة مخلوطة السمسم . وقطع رقاق من الجبن لطعامها . وكان هو يشرب قدحه ويستطيبه ويتمطق أيضًا . وأما هى فكانت تذوقه وتذوى وجهها وتقبضه ؛ فيضحك . وكان

يحرص على أن يدعها تتحدث، مكتفيًا بحسن الإصغاء، والابتسام المشجع، وهز الرأس من حين إلى حين علامة الموافقة أو الفهم، فتفتح له قلبها وتدلق كل ما فيه. وقلما كان يثقل عليها برأيه أو كلامه. ولكنه كان لا يسعه أحيانًا، إلا أن ينصح لها متلطفًا معها ويوجهها إلى ما هو أرشد وأحجى وأولى بأن ينيلها مبتغاها، أو راحة القلب من وجع الدماغ. ويسره منها ويغره أنها كانت تصدر عن رأيه فى كل حال.

وكانت محاسن مزاحة طيبة الحديث تقبل الملاعبة ولا تضن بالقبل، ولكنها لا تطاوع على ما سوى ذلك. وكان هو قانعًا بهذا القدر، لا ينشد ما جاوزه، وإن كان يشتهيه. ولا يخطر له أن يغافلها أو يغالطها أو يستدرجها أو يشجعها على ترك التحصن. لأنه كان يجد الكفاية من الاستمتاع فى هذا القدر من التقارب للغزل. ويرى أن إخلادها إليه بالثقة والاطمئنان قد حمله أمانة. وقد اعتاد الكبح والحرمان، فأيسر الأمرين أن يمضى على ما ألف، وأعسرهما أن يتعرج. ثم لأنه كان يخشى عاقبة الطمع. ويتقى أن يهجم - ولو أن فى طبعه أن يهجم - فيقعد به ما يتوهم أنه صار إليه. فقد كانت ثقته بنفسه مضعضعة.

غير أنه كان من العسير أن يلتقيا مرة بعد مرة، وأن تكون بينهما هذه الصحبة المتينة الطويلة، وأن يكون كل منهما للآخر ناموسه وصاحب سره، لا ينشرح للكلام أو يتبسط فيه إلا معه - دون أن يقع شيء ما، وقد أعان على ذلك ويسره، اطمئنان محاسن إليه وثقتها بعقله وما يتوهمه من خبرته ومعرفته، ولينها له طول

تقاربهما للغزل، وغلبته هو على عقله لهفته على امتحان نفسه. وخيلت إليه اللهفة أن فى وسعه أن يغالطها ويستر ضعفه بحيلة ما، إذا أخفق؛ فإنها غريرة خليقة أن تحسب كل شىء منه هو الغاية التى ليس وراءها غاية. وشجعه اطمئنانه إلى سلامة العاقبة. وظل أياماً متردداً مرجحا، ولكن ما يدفعه كان أقوى مما يصده.

وجاءته يوما تقول: إنها لم تقر فى شهرها، وأنه لو لم يمسسها لما أوجست خيفة. فذعر المسكين ولم يعد يدرى ماذا يقول أو يصنع وأنحى على حظه ولعن نحس طالعه. على أن خوفه كان عليها وجزعه من أجلها، ومن العجب أنها على قلقها، كانت هى التى تطمئنه وتحاول أن تذهب عنه الروع.

وذهبت إلى طبيب تعرفه. ولم تزد على أن قالت: «إنها لم تقر». فوصف لها حقنا وعقاقير، منها ما يفيد القوة، ومنها ما هو للتنظيم؛ فلم يفد ذلك.

وكان هو لا يستقر، ولا يدرى بمن يعود، ومن يشاور، فإن المشاورة تقتضى البث والمصارحة، وذلك ما لا يقوى عليه. ومن سخر القضاء أن عياداً كان هو الذى أنقذه. ذلك أنه لاحظ الاضطراب والوجوم والكمد؛ فسأله عن خطبه فتلجلج. وماذا تراه يستطيع أن يقول لأبى محاسن؟! ولم يفته ما فى الموقف من تهكم الأقدار. فضحك وشر البلية ما يضحك. وألهمه الله أن يلفق قصة طويلة عريضة، اخترع كل ما فيها إلا ما يقيمه ويقعده. فطيب عياد خاطره، ودله على طبيبة نظارة مدققة وعرض أن يرافقه إليها. ولم يكن عياد خالص النية فيما عرض؛ فقد نازعته

نفسه أن يرى هذه الفتاة ويعرفها . وطمع أن تتصل أسبابه بأسبابها . غير أن الأستاذ حليم أبى المرافقة . وهل كان يسعه غير ذلك؟ وقصد إلى الطبيبة وحده أول الأمر ليستوثق من أنها لا تعرف محاسن . لما اطمأن مضى بها إليها ؛ فعالجتها علاجا حكيما فيه بعد نظر واحتياط لكل ما هو محتمل . حتى لا تسىء إلى الفتاة من حيث تريد أن تحسن وكانت تطلب حقنا ، وتصف وصفات بلدية تعرف من خبرتها أنها نافعة شافية ، وكان الأستاذ حليم يدور على الصيادلة والعطارين ينشد عندهم ما يؤمر أن يجىء به . وقد أنساه الجزع بخله وكزازته ؛ فانبسطت يده بعد طول الانقباض . وقضى أسابيع ثلاثة لا يذوق النوم إلا غرارا وإن كان ثقيل النوم كأنما يشرب مرقدا . وكان يصحب محاسن كل يوم إلى الطبيبة ، وينتظر فى مقهى قريب . وفى ظنه أن كل جالس فى المقهى أو عابر ، ينظر إليه ويتعجب . وربما كبر فى وهمه أنهم يتهامسون أو يتغامزون عليه ، بلحظ العين وإيماءة الأصبع . ويتساءلون فيما بينهم عمن يكون؟! وماذا قذف به على هذا الحى؟! فكان يلهج فى سره بالابتهال إلى الله أن «يتوب» عليه ، ويعفيه من الحاجة إلى غشيان هذا المقهى .

ودعته الطبيبة إليها يوما وأنبأته أنه لم تبق لها حيلة . وأن عليه أن يقصد إلى طبيب إخصائى ، فما يسعها هى فوق ما صنعت . وأنها تخشى على نفسها ، وعلى محاسن أيضًا ، إذا هى حاولت شيئا آخر . فتوسل إليها ـ والدمع يجول فى عينيه ـ أن ترشده إلى هذا الإخصائى . فهزت رأسها وقالت بلهجة الأسف والإشفاق :

« إنها لو كانت تعرف أحدا لما اجترأت أن تتوسط له فى مثل هذا الامر » ، ولكنها دلته على طبيبة أجنبية قد «يهديها» الله فتسدى إليه هذه اليد .

فمضى بمحاسن إليها ودفعه اليأس وخوف الإخفاق إلى مصارحتها بالأمر كله . فما بقى من هذا بد ؛ عسى أن ينفعه عندها الصدق ويعطفها على الفتاة فى محنتها . وكانت تصغى إليه وهى مطرقة تزوم وهو يتفرس فى وجهها لعله يلمح فيه ما يستبشر به ، ولما انتهى قال : «هذه هى الحكاية» واضطجع وفوض أمره إلى الله .

فقالت له : «اسمع يا بك . أنا طبيبة نعم ، ولكنى لا أستطيع أن أتكلف مثل هذا الأمر . لا جهلا بل خوفا . غير أن الفتاة جديرة بالرحمة فإذا شئت استشر فى أمرها طبيبا ، وسنرى ما يكون . فعودا غدا فى مثل هذه الساعة» .

وخرج لا يدرى ، أيطمئن أم يقلق؟! وثقلت وطأة هذه الجرة عليه حتى لتمنى أن يقنط ؛ فإنه أرحم . وكانت محاسن تضحك منه ؛ فيزجرها ويروح يهول عليها بما يقدر أنه سيكون ، ويسهب فى الوصف ويتوسع فى البيان كأنما يجد لذة فى تعذيب نفسه ؛ حتى يكاد يخلع قلب المسكينة .

ولكن الله لطف بعبديه . والله يضع رحمته حيث يشاء .

وتشهد أستاذنا حليم ولكن ما عانى من الكرب جاوز طاقته ؛ فآلى ألا يعود .

وصارت محاسن بعد ذلك أهدأ، وأكثر اتزانا، وأقل خفة. فلو . رآها الذين كانوا يقولون إنها طامحة الطرف لا تبالى أن تدنو من الرجال؛ لتعجبوا. وأنى لهم أن يعلموا أنها امتحنت أقسى امتحان، ولأن عزمها كان مستقرا على الانتحار، وأن تكلفها أن تظل ضاحكة السن قد كلف أعصابها شططا؟!

وأنى لمحمود أن يعرف السر فيما صارت تتعمد أن تبديه من التبرم به والإعراض عنه؟!

الفصل الثانى

(١)

ولم تكن محاسن أول من عرف محمود أو أحب أو كاد أن يتزوج أو خاب له فيها أمل. فقد سبقت له علاقة بفتاة مدنرة مدرهمة. ولم يكن يعرف حين عرفها ـ أن لها مالا. أو يعبأ بذلك. وننصف محموداً فنقول: «إنه يؤمن بشيئين: أن من المهانة أن يكون الزوج فقيراً وامرأته غنية. وليس معنى هذا أنه على المرأة الغنية أن تنزل عن مالها لبعلها حتى يعتدل الميزان فى رأى محمود، وإنما معناه أنه ليس مما يحفظ مروءة الرجل ويصون كرامته أن يتزوج امرأة لمالها، وقد يكون هذا رأيا عتيقا ولكنه رأيه الذى يذهب إليه بدافع من إدراكه الخاص لمعنى الكرامة، والثانى: أنه كان ـ على كونه مهندسا ـ يؤثر أن يكون صحافيا، ويظن ذلك خيراً له وأجدى عليه من تطبيق العلم على العمل، وأبى أبوه له هذا كل الإباء وأنكر أن ينفق على تعليمه ما أنفق ليكون شيئًا محسوبًا فى الدنيا فيصير «جورنالجيا»، ووفق محمود بين هواه وهوى أبيه، واتفق مع صحيفة على أن يكون «مراسلها» من ميدان

السباق، وفاز بفضل ذلك ببطاقة تخوله دخول الميدان من غير أن يؤدى الرسم المفروض ». والآن نجىء إلى ما صار يؤمن به وهو أن الصحافى - فقد أصبح صحافيا بشهادة بطاقةالسباق - لا يجوز له أن يتزوج، ولو كان أمر التشريع إليه فى ذلك الوقت؛ لجعل الصحافة من موجبات العزوبة كبعض الأمراض.

ولم يكن يعرف عن الخيل شيئًا، ولا كان مطالبا بهذا العلم. وكان حسبه وحسب الصحيفة أن أندية السباق معارض جمال وأزياء وملتقى كل من هب ودب، ولم يكن عليه إلا أن يجعل باله إلى مناظر الناس، لا إلى الخيل وإلى ما يكون منهن، وكفى بهذا «تعليقا» على السباق.

وقد لقى مرة واحدا من الأجلاف الذين تراهم فى كل مكان يحسن أن يخلو منهم فسأله - أى الجلف - بلا سلام أو تحية: «أشر على، على أى حصان ألعب؟».

قال محمود: «وهل أنا أعرف؟».

وكان صادقا فى نفى العلم بالجياد وقيمتها فى السباق. نعم كان يراهن ولكنه لم يكن له فى الاختيار فضل. فقد كان له صديق من المدربين لا يزال يتحفه بأسماء الجياد التى يتوقع لها الفوز - فيراهن ما شاء على ما شاء، ويجعل عينيه - كما أسلفنا - لا على الجياد، بل على الناس. لأن القول فيهم هو العمل الذى يؤديه للصحيفة التى منحته البطاقة - أو الكارنيه - ويربح أو يخسر، يربح فى الأغلب بفضل هذا المدرب، وهوغير فاهم لماذا ربح أو خسر.

فقال ـ أى الجلف أيضا ـ بابتسامة ثقيلة: «سم أى حصان ولو بثلاث أرجل . . يكفى أن تختاره ليكسب».

قال محمود: «ماذا تعنى؟».

قال الجلف وهو يضحك: «إنه يسأل ماذا أعنى؟! أعنى أنك ولدت وفى فمك ملعقة من فضة»

ومضى عنه وهو يطرف ويغمز بعينيه، فلو استطاع محمود أن يخنقه وهو آمن؛ لفعل.

(٢)

ولم يكن محمود فى ذلك الوقت قد فاز بوظيفته فى الحكومة، فإن أباه كان لايزال يسعى، فوسعه ـ أى محمود ـ أن يعد نفسه صحافيا محترفًا، لا هاويًا، ولما انتقلت الخيل إلى الإسكندرية انتقل معها.

بعد أن سبح حوالى ساعة، وكاد النعاس يغلبه وهو مستلق على ظهره وذراعه على عينه، وإذا بصوت ناعم موسيقى النبرات يقول:

«والله عال . . كأنه فى البيت، وفى غرفة نومه، وعلى سريره، ترى بأى شىء يحلم؟»!

ولم يخطر له أنه هو المقصود، فإن الناس كثرة، ولكنه تنبه ونحى يده عن عينه ورفع رأسه قليلاً لينظر، ثم استوى جالسًا؛

فقد رأى فتاة عليها برنس، جاثية على ركبتيها، وعاكفة عليه تتأمله كأنه حيوان غريب قذف به الموج.

وقال: «معذرة.. من أنت؟ هل أعرفك؟».

قالت وهى ترد الضحك وتغالبه: «كلا.. ولكن المظلة تعرفنى».

فصعد طرفه إلى فوق، فإذا هو تحت مظلة كبيرة مخططة لم يفطن إلى وجودها، ولم يشعر بها حين ارتمى على الأرض وقد تحلل به الإعياء وأنهكه جهد السباحة.. ولم يسعه إلا أن يعتذر للفتاة ويرجو منها الصفح، وهم بالنهوض، فردته بإشارة، وقالت: لا تذهب ولكن تنح قليلا؛ فإن الشمس حامية.

فوسع لها، فدخلت تحت المظلة، وقالت: «كلا لا تذهب؛ فإن لك فائدة، إن ههنا شبانا يلاحقوننى ويضيقون على».

قال: مجانين!

فرمت إليه بنظرة فيها بعض الحدة، ولكنها لم تخل من ابتسام ومضت فى كلامها، فقالت: «وقد خطر لى حين رأيتك ممدًا تحت المظلة أن أتخذ منك مجنا يقينى تطفل هؤلاء الـ...

فقال على سبيل التلقين: المجانين.

فابتسمت وأطرقت، وجعلت أصابعها تعبث بالرمل.

وسألها: أليس معك هنا أحد؟

قالت: أمى، ولكنها لا تفارق الكابين، يمكنك أن تراها من

هنا (وأشارت إلى صف الكابينات) وبالها طويل وصدرها واسع وصبرها لا ينفد.

قال مقاطعا: مسكينة.

قالت: من؟

قال: أمك.

قالت ـ مستغربة ـ: وما الذى يجعلك تظن أنها مسكينة؟!

قال: يظهر أنها احتاجت أن تروض نفسها على الصبر.

قالت: آه.

ثم كأنها تنبهت إلى معنى فاتها، فسألته: إيه؟ ماذا تعنى؟!

قال: لا شىء، لا شىء.. استمرى.. فقد أعرناك أذننا.

قالت بابتسام: أشكرك.. ما اسمك؟ ومعذرة فلست أستطيع أن أظل أدعوك يا حضرة...

قال: هل تصدقيننى إذا قلت لك أن اسمى محمود؟!

قالت (ورفعت حاجبيها المرسومين بالقلم مقدار ملليمتر): ولم لا أصدق؟ محمود ماذا؟

قال: ألا يكفى اسم واحد؟ أقسم لك أنى لست هاربا من البوليس، ولا من هؤلاء الـ...

وأشار بيده إشارة عامة شملت كل من على الشاطئ، أو فى الماء.

فقالت: المجانين.. هه؟!

فلم يفته مرادها، ولكنه تجاهله وتغابى وقال: على كل حال اسمى ليس سرا، وإن كنت لا أرى أن أكتبه على لوح وأرفعه على سارية، وما أظنه ينفعك العلم به، فما هو أكثر من بطاقة أعرف نفسى بها، فتفضلى.. محمود فهمى».

قالت: وأنا اسمى سميرة.

قال: اسمعى.. إن خير وقاية لك من هؤلاء ال... ال...

قالت: المجانين.

قال: أشكرك.. المجانين، هى أن تنزلى إلى الماء وتسبحى.

قالت: هذا هو الذى يجمع الذئاب على الحمل، فإنى لم أتعلم السباحة.. وكل ما أستطيعه هو أن أقف أو أقعد فى مكان غير عميق وأخبط الماء بيدى، فيجىء هؤلاء ويحتاطون بى، ويعرض بعضهم علي أن يعلمنى السباحة.

فقال محمود: أنت أخيب الخياب.. أعوذ بالله.

فقهقهت، ثم قالت: لماذا؟ هل السباحة ضرورية جدا؟!

قال: أظنك لا تستطيعين ـ أيضًا ـ حتى ولا أن تقلى بيضًا؟

قالت: اسمع يا محمود.. سأسميك محمودًا بلا كلفة... فإن حديثك يعجبنى.. وأكبر ما يعجبنى منك أنى لا أعجبك.. هذا واضح...

قال مقاطعا: إن قوامك جميل.

قالت وهى تفحص قدها بعينها: ألا تظن أنى أنحف مما يجب؟

قال وهو يدير عينه فيها: نعم.. قليلا، لقد كان لى زميل فى المدرسة له مثل قوامك وكنت أضربه علقة كل بضعة أيام، ولكن ساقيك أجمل. لا محل للمقارنة فى الحقيقة، وصدقينى إذا قلت لك: إنه ما من فتاة فى هذا الزمن تستطيع أن تصل إلى شىء بغير ساقين جميلتين.

قالت: هذا ما أقول لأمى كلما قالت لى إن ثيابى قصيرة، يظهر أننا سنتفق.

قال: لا تتسرعى.

قالت: لا تخيب أملى من فضلك.. بماذا تشتغل؟

قال: صحافى، وإذ أردت الدقة، فإن كل عملى هو أن أذهب إلى نادى السباق وأصف لصحيفتى جماعة الإنسان، لا جماعة الخيل المحتشدة هناك.

قالت: لا يبدو عليك ذلك، هل تعلم أن الصحافيين ثقلاء؟ ولكن الحق على أمى، فإنها لا تزال تدعوهم إلى حفلاتها... لا أدرى لماذا؟!.. أظنها تتوهم أن ما يكتبونه عن حفلاتها يساعد على تزويجى بسرعة.. ولكن المسألة هى أنى لا أريد أن أتزوج، هل تعرف ماذا أتمنى أن أصنع اليوم؟! أذهب إلى السينما مع واحد مثلك لا أعجبه فلا يغازلنى.. ثم أتعشى بسندويتش فول مدمس.

قال: ولم لا؟! إنى غير مشغول فى هذا المساء.

قالت: لا أستطيع، مع الأسف، لقد دبرت لى ماما عشاء مع

عمدة من معارفنا، وابنه . . يا حفيظ . . له أسنان بارزة، وعين حولاء وتمتمة . . وإنى لأخشى أن أضطر إلى التزوج بواحد كهذا؛ لأستريح من هذه المحاورات والمداورات .

قال : هل تريدين أن تكونى عمدة؟!

فضحكت ثم قالت : إنما أريد أن لا أقابل أحدًا يريد أن يتزوجنى .

قال : لا بد أن هناك كثيرين لا يريدون، فلا تيأسى .

قالت : ولكن كثيرين يا محمود يعدوننى جميلة .

قال : لا تصدقيهم؛ فإنهم يخدعونك، وربما كانوا يجاملونك ولعلهم يظنونك غنية، فهم يطمعون فى مالك .

قالت : ولكنى غنية .

قال : آه، انحل اللغز .

فسألته : ألا ترانى على شىء من الجمال؟!

قال : لا أدرى . . على كل حال لست أحب اللون الأسمر .

كانت هذه هى البداية .

وقد التقيا بعد ذلك مرات على الشاطئ فى جليم أيضًا . .

فإنه حيث يكون الكابين، يكون صاحبه أو صاحبته والذين يحومون حولها .

وفى إحدى المرات استبقته، وجاءت بحقيبة كالتى يتخذها التلاميذ سوى أنها من جلد نفيس، وأخرجت منها طائفة من

السندويتش ودعتـه إلى مـؤاكلتـهـا ، وقـالـت له وهى تقـضم : اسمع . .

قال : كلى آذان . . هاتى . .

قالت : خطرت لى فكرة ، إنك تريد أن تقضى بقية الصيف فى لبنان ، هه؟ . .

قال : أتمنى . .

قالت : ولكنك لا تستطيع .

قال : صدقت ، العين بصيرة ، واليد قصيرة ، وأبى يهىء لى وظيفة لأكسب رزقى بعرق هذا الجبين العريض .

قالت : تستطيع . . .

قال : ماذا؟!

قالت : أن تترك لى السندوتش بالبطارخ ؛ فإنى أحبه!

قال : الضيف مفضل يا آنسة سميرة .

قالت : اسمع . . اذهب إلى لبنان .

قال متمثلا : ملنا أم بَنا بنا ، أم جفانا ، وقلانا واعتاض منا سوانا؟! ألم أقل لك إن العين بَصيرة . . ؟

قالت : ولكنك تستطيع . . ألا تفهم؟!

قال : أتراك تعرضين على قرضا حسنا أو هبة؟!

قالت : بل ، أعرض عليك الزواج .

قال : هذه هى التى لا تريد أن تتزوج؟! الاقتراح مرفوض ،

والرفض مقرون بنصيحة، أن تذهبى إلى الطبيب حالا . .

قالت : اسمع، لا تكن متعجلا .

قال : أنا؟ أنا المتعجل؟!

قالت : نعم، اسمع، تتزوجنى وأتزوجك .

قال : مفهوم . . زواج متبادل . . لا من ناحية واحدة فقط . . مرة أخرى أقول : يفتح الله .

قالت : لكن ماما موافقة .

قال : شيء جميل . . إذن، فلتتزوجك هى .

قالت : أنت أنانى، وقاس، وقلبك كالحجر .

فلم يسعه إلا أن يضحك، فقالت :

إنى أعرف أنك لا . . لا . . إنى لا أعجبك، ولكنى لا أطالبك بشيء، ستكون بعد الزواج حرا، تحيا وحدك، وتذهب إلى حيث تشاء، وتصنع ما يحلو لك، وكل ما أبغيه هو أن أستريح من الذئاب التى تحوم حولى وتلوب، ومن المداورات التى لا تنتهى . وإذا شاء الله ووجدت الرجل الصالح، دعوتك أن تطلقنى؛ لأتزوجه فأى بأس فى هذا؟! ألا تحب أن تساعدنى؟ ألا تريد . . ؟

فقاطعها، قائلا : إن كل ما أريده الآن ـ حالا ـ هو جرعة من الكونياك لو كان إليها هنا سبيل .

ولم يتزوجها؛ لأنه لم يستطع أن يقنع نفسه بهذا التمثل الجنونى، ورأى بعد ذلك أن ينأى عنها ويتقى لقاءها، واتقاء الفتنة خير من التعرض لها . .

وذهب الصيف، وجاء الشتاء، وانتقل ميدان السباق إلى الجزيرة ومصر الجديدة، وهناك كان يلقاها برغمه، وكان يرافقها شاب لا يعرفه ولا يستخف ظله، ودعته مرة إلى الشاى فى منزلها، فاعتذر، فألحت، وقالت: إنها تريد أن تعرفه بخطيبها، وإنها حدثت خطيبها عنه كثيرا فسألها: من عسى أن يكون؟!

فأشارت إلى الشاب.

فقال محمود، مستغربا: هذا المخلوق؟!

قالت: ليس بمخلوق، إنه حمدى، ثم إنه يحبنى ويعبد التراب الذى أمشى عليه.

قال: ظاهر، ظاهر، فهل تريدين أن أهنئك؟

قالت: لم لا؟ ألا يمكن أن تقول كلمة ظريفة؟

قال: على عينى ورأسى، ما أرخص الكلام، مبروك، مبروك، وهنيئا له.

قالت: لا تتهكم.

قال: وماذا أصنع إذا كنت ترمين نفسك على هذا الوقاد؟!

قالت: إنه ليس وقادا.. إنه موظف.. ثم إنى لم أرم نفسى عليه.. هو الذى..

قال: هذا ألعن.. يضحك عليك هذا البراد!

قالت ودبت برجلها: ليس برادا، فلا تكن فظا، ثم إنه يحبنى.

قال: وأنت؟

قالت خطيبته، ولم تزد.

وذهب إلى بيتها؛ إجابة لدعوتها، ولم يكن خطيبها هناك، فاستغرب محمود رغم أنه سره أن لم يجده، واستقبلته أمها، وشرعا يتكلمان الكلام المألوف، ويتبادلان الملاحظات المعتادة عن الجو وما إليه، استطردا ــ بطريقة ما، والحديث ذو شجون ـ إلى سميرة وخطيبها، فغاظه وأحنقه أن يسمع من هذه السيدة التى كان يظنها عاقلة حصيفة، ثناء على الخطيب، ولا ندرى ماذا كان يتوقع غير هذا! ولكن الذى ندريه أن الأم نظرت إليه نظرة لم يفهمها، وقالت له:

«إن سميرة فى الحديقة، فاذهب إليها، وقبل أن تذهب، أحب أن أقول لك إنى لم أر فى حياتى أغبى ولا أعمى ولا أطرى ولا أضعف منك، و يخيل إلى أن جسمك مصنوع من الجبن الحالوم، لا من اللحم والعظم، والآن اذهب».

فخرج إلى الحديقة، وقد فتحت له هذه النعوت الجميلة! بابا من التفكير كان موصداً.

وألفى سميرة مسندة ظهرها إلى جذع شجرة، وساعداها مطويان على صدرها، تحت ثدييها الناهدين، وهى شاخصة لا تطرق؛ فوقف إلى جانبها يتأملها وهى كأنها لا تشعر به، ولا تدرك أنه موجود، فتعجب، وكأن فى وقفتها من السحر، وفى خطوط قوامها من الجمال والفتنة ما لم يفطن إليه إلا الساعة، كأنما ما رآها قط من قبل.

وتمثل له ـ وهو واقف حيالها ـ شخصان : جده الأعلى الذى كان يسكن الكهوف ويعمل بالفأس، ولا يرتدى إلا جلد الحيوان، وشخص آخر منتزع من ثقافة الزمن وحضارة العصر، عرف فيه نفسه.

وكان الأول يقول له وهو يحرك الفأس : « أقدم يا شيخ، ما هذا الجبن؟ ! ألم أنصح لك من قبل مرات، أن تعامل هذه الفتاة بالطريقة التى جربت واختبرت ملايين المرات ونجحت فى كل مرة؟ ! ولكنك لم تسمع ولم تطع، ولهذا فقدتها».

وكان الآخر يقول : «مهلا . . مهلا، قد تكون هذه طريقة صالحة فى عصور الاستيحاش والهمجية، ولكنا اليوم فى القرن العشرين، والفتاة على كل حال مخطوبة، فكيف تشير عليه بأن . . . »؟ !

فيقاطعه الجد الأعلى ويصيح به : «مخطوبة أو غير مخطوبة . . هذا لا قيمة له، إنى أقدم له نصيحة ثمينة، وأشير عليه بالخطة المثلى».

فيقول الآخر : «لا يسعنى إلا أن أحتج وأعترض على هذه النصيحة وتلك الخطة، وإن على صاحبنا هذا أن يتقبل حظه بالصبر والرضى».

فيصيح الجد الأعلى : «كلام فارغ، إن الذى عليه أن يفعله هو أن يجذب هذه الفتاة إليه ويطوقها ولو كان لها ألف خطيب وخطيب . . ولو كنت فى زمنى، وفى سنى ومبعثى ؛ لما رأيتنى أتردد ، فاسمع منى يا هذا وأطعنى فلن تندم».

وفى هذه اللحظة تنبهت سميرة إلى وجوده، أو أظهرت أنها تنبهت، وجعلت تتمتم: محمود.. محمود..!

ولا يدرى محمود كيف حصل هذا، ولكنه شعر أن الحديقة رقصت: فأما الأشجار فكانت تطول وتقصر، وأما بساط الروض فكان يدور، ويدور، ولكنه هو كان ثابتا ـ لا يدور ولا يضطرب ـ وبين ذراعيه سميرة.

وسمع نفسه يسألها: وحمدى هذا، ما الرأى فيه؟ ماذا عسى أن تقولى له؟!

قالت: ألم تقل لك ماما؟!

قال: نعم، قالت لى إنى غبى وأعمى ومصنوع من الجبن الطرى.

قالت وهى تضحك: إنها ظريفة، أليست كذلك؟

فسألها: أهذا رأيك فى الظرف، ما هو؟

فضحكت وقالت: لقد كادت تجن لأنك أعمى، وغبى، و...

قال متممًا: ومصنوع من الجبن الطرى.

قالت: حمدى هذا، ناظر الزراعة، وقد استقدمته ماما لتفتح لك عينيك به، ولكنه كان لا بد من استعمال السكين ـ على ما يظهر ـ لشق جفونك.

فصاح محمود: هل تعنين...؟!

قالت : أعنى أنى أعددت لك سندويتش بالبطارخ . . . تعال ، وجرته من يده .

وتنهد ممثل الثقافة والحضارة فى القرن العشرين ، وغاب .

أما الجد الأعلى ، فكان يهز رأسه مسرورا ، ويحيى محمودا بالفأس !

(٣)

ودارت الحياة بعد ذلك دورتها المألوفة بضعة أيام ، وأفضى محمود إلى أهله بخطبته : فأما أمه ، فسرها أن ابنها يوشك أن يكون زوجا ورب أسرة ، وإن كان قد أقلقها غنى الفتاة ، وتحسرت على ما كان لبعلها من مال ضيعه ، وكانت قبل ذلك قانعة راضية قريرة العين ، لا تأسف على ما فات ، ولا تتبرم بحاضر ، ولا يعنيها إلا أن ابنها أتم تحصيله وأنه سيكون موظفًا ويعيش فى دعة وخفض . . ويرتقى ، ثم يرتقى ويفخر بالمال والسعة والأهل ، وإذا به ينبئها أنه خطب فتاة ذات ضياع عظيمة قبل أن ينال الوظيفة المشتهاة ، ويضع قدمه على أولى درجات السلم الذهبى ، وإنه لجدير بالسعادة وأهل لكل خير ، وقد يكون صحيحا ما خبرها به من أن الفتاة تحبه ، بل المحقق أن هذا هو الصحيح ، وإلا لما اختارته وآثرته على عشرات من الشبان ، كلهم أحسن منه حالا ، غير أنها مع ذلك خشيت أن يصغر أهله فى عيون أهلها ، إذا لم يصغروا فى نظر الفتاة ؛ من جراء التفاوت فى الرزق .

وأما أبوه، فلم يسره أن فتاه ذهب فأحب فخطب من غير أن يشاوره، وصحيح أنه لم يكن يملك أن يرجئ الحب حتى يسأله، ولكنه كان خليقا أن يدرك أن له أبا يراجع فى مثل هذه الشئون الكبيرة، وأن لا يغيب عنه أنه مازال مكفيا - ولا نقول عاطلا - لا مال له يعيش منه، أفلا انتظر حتى تسلم الوظيفة، ثم فكر فى اختيار الزوجة؟! وما سر جعل فتاة واسعة الثراء تؤثر فتى لا عمل له ولا مال، وليس ينقصها المعجبون ولا الطامعون؟! ولو أن أرض الرجل كانت قد بقيت له؛ لما عبأ شيئا بضياع الفتاة، ولا اكترث لما بين الثروتين من التفاوت، فإن شيئا - ولو قليلا - خير من لا شيء، والعبرة بالاستغناء وبأن المرء يحور إلى شيء فيه كفاية وعليه اعتماد، وبهذا يسعه أن يحتفظ بكرامته ويكفل الاحترام لنفسه، فيواجه الفتاة وهو ثابت على قدميه ويقول لها بلسان الحال: «إنى لا أبالى كثرة مالك وإرباءه على مالى؛ فإن ما جاوز مقدار الحاجة - حتى مع التوسع - زيادة لا انتفاع بها، وبحسب ما عندى، فنحن كفؤان فى ذلك النصيب من المال الذى إليه الحاجة، وبه يطيب العيش، ولو كان لك فوق ذلك مال قارون؛ لما فضلتنى به.

أما الآن . . .

وهز الرجل رأسه متحسراً منكراً على ابنه أن يزج به - بغتة - فى هذا المأزق الحرج.

ولم يعجبه ما قصه عليه محمود وهو يضحك، ماتوهمه، ائتمارا به من سميرة وأمها، وهكذا تصنع البنات الطيبات، وأمهاتهن الصالحات؟

أفلو كانت لنا بنت كسميرة، أكانت أم محمود تطاوعها هذه المطاوعة؟! وتملى لها هذا الإملاء، وترخى لها الحبل على هذا النحو، وتشجعها على التحبب إلى الفتى الذى عليه العين، وتزيد فتدعو؛ إليها ناظر الزراعة أو الضيعة وتأمره أن يمثل دور الخطيب المنافس لمحمود، وتتركهما معا؟! ومن يدرى ألا يمكن أن يكون هذا الناظر قد قبلها وعانقها؛ نزولا على مقتضيات التمثيل حقيقة، والهزل جدا؟! سبحان الله العظيم! وأى فتاة تكون هذه التى تأمر الرجل أن يقبلها؟ بل التى تجىء بموظف عندها وخادم لها وتقول له هذا فمى فقبله، وهذا صدرى ضمه إلى صدرك، وأحطنى بذراعيك وشد على خصرى، أعوذ بالله وأى أدب هذا الذى أدبتها أمها؟! وبأى عقل تسمح بهذه المهزلة، التى لا يبعد ولا يستغرب أن تنقلب فاجعة؟!

ولكن أبا محمود لم يصارح محمودا بما ساوره من الهواجس، وحاك فى صدره من الشكوك ودار فى نفسه من بواعث القلق، واكتفى بأن يعاتبه ويلومه فى رفق على هذه المباغتة، وينصح له بالتريث والأناة زمنا كافيا؛ حتى يفوز بوظيفة من جهة، ويدرس أخلاق الفتاة وسيرتها درسا أوفى من جهة أخرى، ثم دعا له بخير.

ولكن الشباب هو الشباب، فلم يتريث محمود ولم يتأن، ولسنا نعنى أنه عقد العقد، وإنما نعنى أنه صار لا يفارق سميرة فى ليل ونهار أو فى معظمهما، وكان لا بد أن تتعارف الأسرتان، وتتزاوران، فأما سميرة؛ فرحبت بالأمر، ولم يخطر لها أن غناها

مبعث قلق لأسرة محمود فلعل الذى حبب محمودا إليها أنه كان بادى الزهادة فى مالها قليل الاحتفال به ، وأما أسرة محمود ؛ فاضطربت للقاء الأول والزيارة الأولى .

وقال محمود لأمه ذات مساء : لماذا لا تجيئين معى إلى بيت سميرة؟!

قالت : كلا . . اذهب وحدك ، وخذ معك المعطف ؛ فإن الليلة باردة .

قال : سأفعل .

فسألته : ماذا تصنع هناك كل ليلة؟!

قالت : أجلس معها ، أو نخرج معا إلى سينما ، أو غير ذلك .

قالت : من يؤدى النفقات؟

ـ قالت : ماذا تعنين؟!

قالت : أعنى أنه لا يليق أن تؤديها هى عنك .

قال : من قال لك إنها تؤدى عنى شيئا؟ وهل أحتاج إلى مالها ؛ لأدخل معها دارًا للسينما؟!

قالت : لا تغضب ، فإنما كنت أخشى .

قال : إنك لا تحبينها .

قالت : إنك مخطئ، فليس الذى بى لها أنى لا أحبها ، وكل ما فى الأمر أنى لا أراها تصلح زوجة لك .

فنهض مستاء ، وخطف المعطف ، وقال بحدة وهو يخرج :

«لا فائدة من هذا الكلام، سأتزوجها والسلام».

ولم يطلع محمود سميرة على شيء من هذا، وما عسى أن يقول لها.. أيقول لها إن أبويه لا يرضيان بها زوجة له؟! وإذا تشجع وفعل، ولكن هذا مستحيل.

ووطن نفسه على الصبر حتى ينال الوظيفة؛ فيسعه حينئذ أن يكون حراً فيما يفعل ويترك.

وسألته سميرة مرة فى أعقاب سهرة طويلة: ماذا عساك أن تقول لماما حين تدخل عليها فى مطلع الفجر؟!

قال: إننا كنا نتحدث.

قالت، وهى تضحك: ولكن هذا لم يكن كل ما تفعل.

وتعانقا، وكانت تضحك وهى تدنى فمها من فمه، وكان جسمهما كله ينتفض، وإذا به يجمد ويتخشب ويقصيها عنه ويحدث فى عينيها ويسألها: ماذا تعنين؟!

فتعجبت وهزت رأسها مستفسرة؛ فقال وهو يدع ساعديها يهويان: يظهر أنك مللت صحبتى، وإلا فما سؤالك عما أقول لأهلى حين أعود إليهم من عندك؟ ماذا يدعو أن أقول أنا شيئا، أو أن يسألوا هم عن شيء.

فاعتذرت وأسفت؛ لأنها قالت ما يمكن أن يحمل على هذا المحمل.

وألفاها بعد ذلك أكثر جداً وتحرزاً فى الكلام، وقل ضحكها وبدت كأنما يدور فى نفسها شيء، وصارت تصمت، وتنطوى على نفسها؛ فتزداد جمالا وفتنة، وبعداً أيضا.

وأحس محمود أن هذا جانب لم يكن يتكشف له من قبل، وأشفق أن تظل ناحية من نفسها محجوبة عنه مزوية عن عينه، لا يطلع عليها ولا يستطيع أن ينفذ إليها.

ورافقها ذات ليلة إلى البيت، بعد أن شهدا معا رواية سينمائية وكانت يدها فى يده، لم تتخل عنها وهى تفتح الباب، كأنما تدعوه بذلك إلى الدخول؛ فقال: أخشى أن نزعج ماما (يعنى أمها).

فقالت: لا تخف ولا تخافت بكلامك؛ فإن نومها ثقيل.

ودخلا، فقالت وهى تخلع معطفها:

لقد قابلت ماما (تعنى أمه هو) اليوم فى متجر.

فسبقه لسانه وسألها: ماذا كان منها؟! ألم تكن لطيفة معك؟

قالت: نعم، فإنها سيدة مهذبة، ولكنها يا محمود لا تحبنى ولا ترضى عنى.. لا أدرى لماذا؟! ولا أعرف كيف أفوز برضاها، وأكسب حبها.. مشكلة.

ونحّت وجهها، كأنها تستحى أن تنظر إليه، أو تخشى أن تقرأ على وجهه مصداق كلامها، وهى تقول ذلك.

فجذبها من ذراعها، وطوقها؛ فلم تلن له، وانثنى رأسها على صدرها، ورأى عينيها مغرورقتين؛ فلثم جفونها وخديها وشفتيها وجبينها، وجعل يهمس: إن أمى لا يسعها إلا أن تحبك.. لا مفر من ذلك.. إنما يخيفها غناك وفقرنا.. ولكن هذا لا قيمة له.. فمالنا بمالك شأن.. ولن أتخلى عنك أبدا.

فتفلتت من عناقه بلطف، وقالت بصوت هادئ متزن النبرات:

ليس يطيب لى أن أفسد ما بينك وبين أمك.

ليس يطيب لى أن أفسد ما بينك وبين أبيك.

قال: ولكن هذا لن يكون، فلماذا تتوهمين أن هذا يمكن أن يقع؟! ألست سأتزوج يوما ما؟ وكيف يعنيهما أن تكون زوجتى غنية أو فقيرة؟! إنها حياتى لا حياتهما، وقد كاد يتم أمر الوظيفة، فلا حاجة بى إلى معونة منهما.

وكأنما جرى ببالها شىء؛ فضحكت، وقالت: لن تتخلى عنى يا محمود، أينا الذى قنص صاحبه؟!

فضمها إليه ضمة قوية، وأهوى على شفتيها بالقبلات الحرار وكانت تضحك وتعالج أن تفلت وهو يأبى أن يدعها؛ فقد كانت كالخائف من مجهول لا يدرى ما يهجم عليه منه، ثم أفرج عنها وخلاها، فخيل إليه أنها تخفى عنه شيئا، ذلك الجانب المستتر الذى لا يتبدى ولا ينكشف، فعاد يجذبها ويضمها، وهو يشعر أن بينهما حاجزا على الرغم من هذا التدانى وكانت تبادله قبلاته، وتلتقم فاه كأنما كانت هى الرجل، وتقر له وهو يهصرها، تتمتم بما لا يتبين. ولكنه كان يشعر أن بها الليلة غموضًا واعتياصا وبعدًا.

ثم قالت له وهى تسوى شعرها: يحسن بك أن تذهب الآن.

وكان يفرك عينيه، كأنما يستيقظ من سنة، وإن كان تام الإدراك لقربها والشعور بحرارتها، وفتنة صباها، وهمّ بتقبيلها مرة

أخـرى، ولكنهـا أسـرعت؛ فنهـضت قـبل أن يلف ذراعـه عـلى خـصرها وقـالت: أرجـو، أرجـو أن تذهب. . لقـد كـاد الـليل أن ينتصف.

فقال: إنى آسف يا سميرة، كان ينبغى أن أخرج قبل ذلك.

قالت: لا تقل هذا، ولكن يحسن أن تعود إلى. . إلى البيت؛ فقد أصبحت أخشى أن تظن أمك الظنون بنا؛ لطول ما نقضى من الليل معا.

فأقبل عليها بلهفة يقول: وماذا يعنينا ظنها خيرًا أم شرًا؟ ألسنا سنتزوج؟!

قالت: أرجو. . أرجو أن تذهب الآن.

ولثمت بنانها له وهى تودعه عند الباب وأحس أن على صدره حجرا وهو يخرج، وخيل إليه أنها لم تكن مصغية حين قال: ألسنا سنتـزوج؟ وجعل يردد وهو يمشى: أترانا سنتـزوج؟! ثم صارت عبارة السؤال: هل نتزوج؟! وصار خطوة على مقاطعها، كأنها لحن موسيقى.

وزارها فى الضحى؛ فلم يجدها؛ فترك لها رسالة.

وفى المساء كانت أمها جالسة إلى المائدة وحدها تتعشى، فأشارت إليه أن اقعد؛ فأراح كفيه على المائدة وسألها: أين سميرة؟

فتمهلت شيئًا قبل أن تجيب: سافرت.

وكانت هادئة ساكنة لا يبدو على وجهها شيء ، كأنه درهم مسيح .

قال : سافرت؟! إلى أين؟! ومتى؟! ولماذا؟!

فاعتمدت على المائدة بكوعيها ، وقالت : ألا تجلس؟ ما هذه الوقفة المزعجة؟!

قال : أريد أن أعلم وأطمئن .

قالت : تطمئن . . هه . . أى رجل أنت . . وحركت رأسها يمنة ويسرة .

فانحط على الكرسى وهمّ بكلام ، ولكنها سبقته إليه ، فقالت :

هذا أحسن ، أستطيع على الأقل أن أريح عنقى .

فسألها : ألا تريحيننى أنا أيضًا؟!

قالت : أما متى سافرت ، ففى بكرة الصباح ، عرفت هذا من الخدم ، وأما إلى أين ، فلا أدرى ، وأما لماذا ، فعلمه عند الله . . فهل استرحت؟!

قال : كيف أستريح وأنا لا أعلم أين هى ولا . . .

قالت : إيه . . افعل ما بدا لك . . الدنيا واسعة . . اذهب؛ فابحث عنها فيها .

فصاح بها : كيف تقولين هذا؟!

فقاطعته قائلة : «يا حبيبى ماذا تريد أن أصنع . . إنه لا سلطان لى عليها ، وإن كنت أنا أمها ، وقد كنت أنت القادر على تمسكها ، ولكنك تركتها تطير ، بل حضضتها على الطيران . . هل تستطيع

أن تقول لى، لماذا يعارض أهلك فى الزواج منها؟! ولماذا ينفرون منها هذا النفور؟! ودع أهلك وقل لى أنت، لماذا كنت تأبى كل هذا الإباء السخيف أن تدعها تنفق مليمًا وهى معك؟! من أجل أنك لست كفؤا لها فى الثروة، يجب أن تنزل هى عن كل ما ألفت، وأن تروض نفسها على حياة الضنوكة إرضاء لك؟! أليست هذه أنانية صارخة حمقاء؟! كيف يمكن أن تعيشا معا راضيين ناعمين إذا كنت تستكبر هذا الاستكبار المر المتعب؟! أى حياة تكون حياتها معك؟! ما خير مالها إذن؟! ماذا تفيد منه؟! وتجىء وتسألنى أين هى؟ ولماذا سافرت؟ ضجرت يا سيدى . . طقت . . انفلقت، أيقنت أن حياتها معك ستكون جحيما لها ولك، ولأمك، ولأبيكَ. هل استرحت الآن؟! هل فهمت يا غبى، يا أعمى، لشد ما خيبت أملى فيك، أنا التى لم أزل أحتال، حتى حسبتنى ظفرت بك لها. لا حول ولا قوة إلا بالله . . . »!

فأطرق برهة، ثم رفع رأسه وسألها: وبماذا تشيرين على؟ أرجو أن تظلى حليفة لى».

فقهقهت، ثم قالت: « يسألنى هذا المصنوع من الجبن الطرى بماذا أشير؟! تزوجنى أنا . . عسى أن أذكرك بها . . . »، وقهقهت مرة أخرى: «اسمع يا حبيبي، إما أن تأكل معى وأنت ساكت، وإلا فاذهب أنت أيضًا عنى».

ولم يكن يطيق السكوت، ولا كان لسانه يقوى على الدوران، فنهض ومضى إلى الباب فى صمت، فلما صارت يده عليه سمعها تقول:

«إذاأسرعت فقد تدركها، ولست أظنك فاعلا»!

فدار وصاح بها: «إيه؟»، وقد عاد الأمل ينبض:

فقالت، وهى تهز رأسها: «كلا، لا أظنك مدركها. . ، عوضى على الله»!

فارتد إليها وأقبل عليها يتوسل أن تفصح، ويلثم رأسها وكفيها بطنًا وظهرًا.

فتنهدت، واضطجعت، وقالت: «إن كان لا بد أن تعلم، فاستعد لصدمة. . كنت أشفق عليك منها " لأنك خرع. . مصنوع من الجبن الحالوم. . هذا رأيى فيك كما تعلم، ولكنك ولد طيب. . شريف عفيف. . ولقد كنت أطمع أن تكون لى ابنا؛ فخيبت أملى. الأمر لله. . كل حياتى سلسلة آمال خابت. . حتى أصبحت لا أبالى شيئًا. . استوى الخير والشر عندى. . والسعادة والشقاء. أظنك تقول إنها عجوز ثرثارة. . الحق معك؛ فإنك لا تدرى، ترانى فى نعمة وتسمعنى أقول. . . أوه، ما الفائدة؟! وهل مثلك يمكن أن يفهم شيئًا؟!».

وأمسكت. فتحامل محمود على نفسه، وألح عليها أن تنتجيه، فتبسمت، وهزت رأسها وأراحت يمناها على كتفه وقالت:

«الشباب قليل الصبر. . إنه لا عمل لى فيما بقى لى من عمر إلا الحديث. . وفى الوقت متسع، فلنتكلم عن سميرة. . فاعلم أنها سافرت إلى الضيعة، وقد استقر عزمها على الزواج من ناظر الزراعة».

فوثب قائماً، وجعل يهزها ويصرخ: «إيه؟! ماذا تقولين؟!».

فانتهرته وصاحت به: «أمجنون أنت؟! ألا يمكن أن تقعد كخلق الله؟! نعم! ناظر الزراعة: وما له؟! إنه على الأقل رجل موثوق بعقله وحزمه، دخال فى الأمور».

قال، وأمسك رأسه بيديه: «ولكن ناظر الزراعة... كيف تقدم على هذا، وهى لا تحبه»؟!

قالت: «تحبه أو لا تحبه.. ما قيمة هذا؟! أنا تزوجت أباها ولم أكن رأيته ولا رأيت خياله.. ومع ذلك عشت معه سعيدة.. إيه».

قال: «لست أصدق.. مستحيل...»!

قالت: «تصدق أو لا تصدق. هذا شأنك...».

فسأل: «يجب أن تمنعها.. ليس المهم أن تتزوجنى.. بل المهم أن لا تتزوج هذا.. هذا البغل.»!

فابتسمت وسألته: «وكيف بالله تنوى أن تمنعه؟»

قال: «أسافر من الغد، وأحاول أن أرد لها عقلها».

قالت: «سافر..» وهزت كتفيها.

قال: «كيف تركتها تسافر ولم تمنعيها»؟!

قالت: «آه! هذه هى المسألة. كيف لم أمنعها.. فاعلم يا سيدى أنه لا سلطان لى عليها، فإن أمرها بيدها كله، وما أنا إلا.. . ولكن ما الفائدة؟! سافر أو لا تسافر، كما تشاء، ولكن

من فضلك لا تقلب لى دماغى، حسبى ما أعانى».

فخرج على وجهه.

واستقل القطار فى الصباح إلى الضيعة، ولكنه لم يكن يعلم أن القطار الذى التقى به فى الطريق كان يعود بسميرة، وناظر الزراعة، ليقضيا فيها «شهر عسل» طويلا. يعدل عمرا مديدا، إذا قيس بما يجد القلب وما تؤدية الأعصاب ثمنًا للعسل.

وكانت تلك أول خيبة أمل له، وأول زلزلة لنفسه التى لم تكن تعرف غير الاستبشار والثقة والاطمئنان.

وهيهات أن يقتنع الشباب الغرير بأن: لو اطلع أحدكم على الغيب لاختار الواقع، وأن «ثمار الطيش» وصفة نافعة لمن يركب الحياة بجموع الشباب.

* * *

عاد الأستاذ حليم؛ فقبع فى بيته، ولاذ بكتبه، وعاد بخيالاته وأحلامه ما اطرد منها وما شذ، ولكن الأمر لم يستقم له، والحياة لم تطب كما كان الحال من قبل؛ فصار كالفرس الذى يمشى فى أرض ذات حجارة، فهو يجرى كأنه يتقى، ويتردد كأنه منفلت، ويضجر فيها رأسه كأنه يريد أن يغالب اللجام، فهو لا يزال يجتهد ولا يستقر، ولا يمر مرًا سهلا، غير مضطرب. ذلك أنه خالف مألوفه ودخل فى غيره، مستخفيا محاذرا حتى اطمأن واستطاب ما هو فيه وفضله على ما ترك؛ فانقبض، وارتد متواريا. وضرب القدر الكأس التى رفعها إلى شفتيه وراح يمص منها، فأطارها

وتركه صديان يجمع ريقه تحت لسانه، ويتلهف على رشفة أخرى؛ يبل بها لسانه ويصر صماخه من الظمأ إلى عذوبة ما حسا منه، ولا يصبر على ما عرف، بعد أن جرب أنه كان محلا عنه، وذاك حال كل من يأكل من شجرة المعرفة. ومازال صحيحا، أن الحياة إنما تصفو لغافل أو جاهل أو قادر على مغالطة نفسه.

ولم يتغير حاله مع عياد، فكان يجالسه ويسامره، ويؤاكله ويشاربه كما كانا يفعلان، فقد اتقى الأستاذ حليم أن ينقطع عنه، أو يتخلف عن لقائه ولم يكن يدرى ماذا يخاف على وجه الدقة، وإنما كان يشعر بأن عليه أن يلازمه على قدر ما يستطيع؛ لعله يحول بذلك دون كشف المستور.

وحرص أيضا، على لقاء محاسن؛ فقد صار بينهما سر ينتجيان به ويتساران، ولا يزالان يتساقيان، تذكر فجيعته ونعمة الله عليهما؛ إذ سترهما ولم يفضحهما. وكان يشعر أنه يعطف عليها ويرثى لها، وأنه يخافها، ويبغضها أيضا، فلم يسعه إلا أن يظل على اتصال بها؛ ليجنبها الطيش، ويقيها مغبة الخفة، ويدفع عنها عوامل اليأس، ويمنع أن يقع هو فى بلية جديدة.

ولم تكن محاسن خيراً منه حالا أو أقل حيرة واضطرابا. وكانت قبل الذى وقع لها، تجترئ على أبيها ولا يجترئ عليها؛ فأصبحت تغض الطرف حين تراه، وتتلعثم إذ تخاطبه، فرضى هو عن هذا الأدب الجديد ولم يكلف نفسه عناء التفكير فيما فاء بها إليه.

ولم تكن تحب محمودا، ولكنها كانت لا تنفر منه، وارتضت

ما ارتضاه لها أبوها، ووطنت نفسها على حياة زوجية معه، كانت هى تزعم أنها ستكون مملة لا محالة. وكان الأستاذ حليم، يزينها لها ولا ينفك يقول لها، فيما يقول: «إن المرأة قد تحب الرجل قبل أن تصبح زوجة له، ولكن هذا حب لا يكون إلا مشكوكا فيه لأن مرجعه إلى الخيال. وإنما العبرة بما تلقى نفسها تحن له بعد الزواج، وتجربة حياة، وتلقى أثره. وما أكثر النساء اللواتى فتر حبهن، بعد أن يبنى بهن بعولتهن! بل انقلب كراهية صريحة؛ لأنهن لم يجدن ما كن يتطلعن إليه ويطمعن فيه ويتخيلنه؛ فخاب أملهن، وثقلت وطأة الاحتمال على أعصابهن التى لا تفتأ تتنبه ولا تسكن. ويا رب امرأة لم تكن تعرف الرجل ولا رأته، أو كانت تعرفه وتراه ولكن لا تًصفو إليه بود، فلما عرفته زوجا لها؛ أرضاها منه ما يرضى؛ فأحبته، وصار منية النفس كلها وهوى القلب جميعا. ذلك أن الزواج هو الامتحان الصحيح، والمرأة فى هذا على خلاف الرجل؛ فالرجل الذى لا يشبع من المرأة، يقبل ولا يعرض. أما المرأة فإنها إذا ألح عليها هذا السغب، تتلف أعصابها وتصب غضبها على من كان علة حرمانها الشبع».

كذلك كان يقول لها الأستاذ حليم؛ فتصدقه. أليس أسن منها وأخبر؟ أليس مشهورا بالعلم والتبحر فى المعرفة؟

فلما كان ما كان، صار يحدث لها رعبا أن تتصور أن تكون يوما ما، زوجة محمود. وساورها الشعور بأنها خانته، وإن بقى عقلها مدركًا أن هذا شطط فى التهمة وإسراف على نفسها فى الظلم.

وخيل إليها أنها لم تعد أهلا له أو جديرة به، وإن كانت لا ترى له مزية تفرده بين أنداده. وكانت كلما ألحت على نفسها بالاتهام والتحقير؛ تثور وتتمرد وتتساءل عن محمود هذا، ما الذى يجعلها تتوهم أنه خير منها وأقوم سيرة وأنظف ذيلا وأعف عينا وقلبا و . . . ؟! ماذا تعرف عنه سوى ما أطروه به وقالوا فيه من الخير؟ ومتى قال أحد فى طالب زواج إلا كل حسن وجميل؟

وكان يثقل عليها جدا اضطرارها إلى كتمان سرها، فتحس الحاجة إلى البث، وتود لو استطاعت أن تبيح أمها صدرها، وتطلعها على خبيئة نفسها. وكثيرا ما همت بذلك متشجعة؛ بأن قلب الأم أحنى قلب، فيتحرك لسانها؛ فتجبن وتفرغ وتعض عليه.

وقد علمت من الطبيب أن الأثر الذى بقى مما يسهل علاجه. ووعدها خيراً حين تشاء، أو حين تدعو الحاجة إلى الإصلاح، ولكنها مع ذلك بقيت مرة النفس، مشمئزة من هذا التلفيق الميسور والترقيع السهل لما كانت تعتز به وتحرص عليه من آية العفة. وزادها هذا نفورا من محمود، لا كراهة له؛ فقد كان من أغرب النقائض أن شدة تفاعل ما يدور فى نفسها ويضطرب به صدرها ؛ أفضى بها إلى رقة له فى قلبها. وإنما كان نفورها عن استنكاف منه ؛ لمخادعته والكذب عليه وستر الحقيقة عنه. ولما كانت لا تأنس من نفسها شجاعة كافية تعينها على مصارحته، وإن كانت تأنف من الكتمان؛ فقد ألفت نفسها لا تقدر على كف نفورها منه وجفوتها له. ورأى هو من تغير حالها وعسرها فى عنادها،

ووضوح ضجرها منه وزهدها فيه ـ ما نشر المطوى مما أورثته سميرة من سوء ظنه بالمرأة، وسرعة تقلبها، وقلة ثباتها على خلق أو عهد. وسئم أن يكون هذا حظه كل مرة. وأيقن أن فى الأمر رجلا آخر، إذا لم يكن «ناظر الزراعة»، فأكبر الظن أنه هذا الأستاذ حليم الخبيث الملعون، وثار على خسة نصيبه من وفاة المرأة؛ فقطع زيارته لبيت عياد.

ولم يكن بال عياد إلى هذا؛ فقد كان فى شاغل من صاحبته الأجنبية: فإذا لم يكن معها فهو فى طعام وشراب، وصياح وزعيق، وما جعل الله لا مرئ إلا قلبا واحدا فى بدنه، وقد استأثرت بقلبه وعقله صاحبته، واستبدت بلبه، وما بقى من ذلك ـ وهو أقل من القليل ـ استنفده الشعور بأنه ظالم لأهله، والاجتهاد فى خنقه وتلطيف لذعه بالغطرسة، والعجرفة وسوء الخلق.

الفصل الثالث

(١)

وجدت محاسن أنها لم تعد تطيق الصبر على ما هى فيه، وأنه لم يبق لها ما تتعزى به، أو تتطلع إليه، وتتشدد بالأمل فيه؛ فأبوها لا يفتأ أن يغيب عن بيته ليلة أو ليلتين كل بضعة أيام، ويبيت فى حيث لا تعلم، مع صاحبته، ويزعم أنه إنما كان فى «مهمة» وتبلع هذه المهمات معظم ماله، فلا يدع لبيته إلا القليل الذى ليس به اكتفاء. وإذا عاد من «مهمة» برم بالبيت ومن فيه، وأظهر الشكاسة والشراسة، وأبى إلا أن يكون بركانًا «منزليًا» فى صورة آدمية. واتسعت الهوة على الأيام بين عياد وأهل بيته. وكانت محاسن تجاهد ما وسعها أن تلقى من ناحيتها على هذه الهوة جسرا، غير أنها أخفقت؛ لأن أباها لم يتكلف من ناحيته شيئًا من التمهيد أو المعاونة، ولج فى نهجه الأعوج، فكان يفسد كل ما هيأت ويهدم كل ما بنت.

وكانت أمها ضعيفة وهنانة، لا خير فيها ولا اعتماد عليها، غير أنها كانت صابرة لا تشكو ولا تتذمر. وكانت محاسن كثيرا ما تقول لها: «إن طراوتها هذه، هى التى أطمعت فيها زوجها،

وشجعته على ركوب رأسه، وإهمال حق بيته عليه». فكانت الأم تؤمن على كلامها وتتأوه، وتتنهد، ثم تسأل: «وماذا يسعنى؟! ما حيلتى؟! الصبر طيب يا بنتى، الصبر طيب.»! ولم يكن صبرها عن حكمة وبعد نظر، بل عن ضعف ورخاوة وبلادة.

واستشارت محاسن الأستاذ حليم، فما كانت تعرف أحدا غيره تستطيع أن تفضى إليه بهذه الأمور؛ فعجز عن أن يشير عليها بما فيه خير أو يدلها على ما هو خليق أن يكشف الغمة ويفرج الكرب.

فسألته: «وما رأيك؟ ألا أستطيع أن أزاول عملا أكسب به رزقا؟ لا بد لنا من مال أفيده، وأعوض به النقص؛ فإن أبى يزداد كل يوم ضنا وتقتيرا؛ لأنه يزداد كل يوم تورطا مع صاحبته».

قال: «وأى عمل تستطيعين أن تؤديه؟».

قالت: «أستطيع أن أتلقى دروسا فى الكتابة بالآلة الكاتبة، ثم أعمل فى مكتب محام أو فى شركة.. فما قولك؟».

قال: «والله إنه لرأى، ويبدو لى أن هذه هى الوسيلة، ولكنى أخشى عليك».

فتعجبت وسألته: «مم؟»!

قال: «أخشى أن يوقعك سوء الحظ..!..!.. تعرفين ما أعنى.. فقد يتفق أن يكون الذى تعملين عنده أو له خنزيرا؛ فيستغل حاجتك إلى عملك، وأنت مع الأسف، ثرثارة طيبة القلب، إذا آنست رقة وعطفا من إنسان؛ أقبلت عليه وأفرغت له كل ما فى قلبك...».

وكان هذا صحيحا، كما عرف الأستاذ بتجربته الشخصية، فما كادت تجلس إليه ساعة، وتطمئن إلى عقله وعمله؛ حتى أطلعته على ما ينبغي أن يستر من دخائل البيوت وأسرارها.

فابتسمت محاسن، وقالت بلهجة واشية بمرارة النفس: «إذا كان هذا كل ما تخاف؛ فاطمئن، فقد علمتنى ما فيه الكفاية».

فأطرق، وقال كأنما يحدث نفسه: «هذه وخزة أليمة.. وأعترف أنى أستحقها، ولكن، ما كان جاء عفوا وعلى غير قصد، والحمد لله الذى وقاك ـ وقانا ـ سوء العاقبة. وإنه ليخيل إلى أن كل شىء فى هذه الدنيا قضاء وقدر. من كان يظن أن الذى لا يحدث إلا فى الفلتات النادرة، وفى مرة من كل خمسين ألف مرة، يحدث لنا من أول مرة. وعلى الرغم من هذا التحرز والاحتياط؟! سوء حظ ليس إلا.. أو قدر جرى به القضاء: كنت ذات يوم واقفا فى شرفة بيتى، فرفعت عينى إلى البناء المواجة لنا، وهو عمارة ضخمة عالية؛ فرأيت غلامًا منحنيًا على حافة الشرفة، وكان فى الطبقة الرابعة، فذعرت؛ فقد كان نصف الغلام متدليًا، وهممت بأن أصيح به ولكن الصوت وقف فى حلقى فلم يخرج من فمى شىء، ورأيت أمه مقبلة تعدو، ولكنه انقلب وهوى قبل أن تدركه. تصورى هذا.. غلام يسقط من الطبقة الرابعة على الرصيف المبنى من الحجر، أو من الأسفلت، سيان.. وبصرت برجل يمشى على الرصيف وقد قارب أن يكون فى طريق الغلام إلى الأرض، فأيقنت أن الغلام سيتفتت عظمه، والرجل سيصيبه أيضا سوء. وتصورى غلاما يقع من هذا

الارتفاع على أم رأس رجل . . . ألا يمكن أن يدق عنقه؟!» .

وضحك الأستاذ، فجذبته محاسن من كتفه، وسألته بلهفة: وماذا جرى؟!

وقال: هو لا يزال يرتج من الضحك: «جرى؟! جرى؟! لا شيء! نجا الغلام ونجا الرجل، هل تصدقين هذا؟!» .

قالت: «الحمد لله . . ولكن كيف؟! كيف؟!» .

قال: «اسمعي يا ستي» لو كان الغلام وقع من الشرفة إلى الأرض مباشرة؛ لكان قد قُتل، ما فى هذا شك، ولكن القدر شاء أن تحدث المعجزة، فساق هذا الرجل الغافل الذى كان يمشى على الرصيف ولا يدرى أن غلاما يهوى، ولم يسقط الغلام على رأس الرجل، وإنما سقط أمامه، على مسافة شبر أو شبرين منه، فاضطرب الرجل ورد رأسه إلى الوراء، ودفع يديه إلى الأمام، وهو لا يدرى ماذا يتقى بهما، دفع يديه؛ فدفعا الغلام؛ فانقطع خط السقوط وزالت قوته؛ لأن الغلام تحول عن طريق الهبوط ـ كان يهوى من أعلى إلى أسفل، فانتهى هويه باندفاعه فى خط أفقى؛ فلما سقط بعد ذلك على الأرض كان سقوطه من ارتفاع متر أو حوالى ذلك ليس إلا، فلم يضره ذلك. أى نعم، كل شىء فى هذه الدنيا قسم وحظوظ وأرزاق. هل تعرفين كيف عرفت أباك؟! «وضحك مرة أخرى» قصة لطيفة، كنت سائرا فى الطريق وعينى على الأرض، وإذا بكف تلطمنى وتكاد تلقينى على الأرض، وكان أبوك هو الذى لطمنى، ولم يكن يتعمد ذلك، لكنه ـ كما تبينت ـ كان يتحدث ويلوح بيديه، فأصابتنى كفه

وأسرف فى الاعتذار كما كان يسرف فى التلويح بذراعيه، وأبى إلا أن يسقينى شايًا فى مقهى، وهكذا عرفتك أنت. . فهل آمنت أن كل شىء فى دنيانا قدر وقسمة؟».

فربتت له على كتفه، وقالت: «ثق أنى لا ألومك على شىء، ولكنه لا يسعنى إلا أن أشعر بألم ومرارة؛ لأنى كنت ضحية هذا القدر، فاعذرنى إذا فاضت المرارة على لسانى».

قال: «إنى عاذر وشاكر. ولا تحسبى أنك أنت وحدك الضحية وإن كان أمرك أبين وأوضح، فإنى أنا أيضا، أصبحت إنسانا آخر. . ولكن دعى هذا، ولنعد إلى العمل الذى تنشدين».

وأمدها بقدر يسير من المال؛ تستعين به على التدريب على الآلة الكاتبة فى أحد المكاتب أو المعاهد المعدة لذلك. فلما أتقنت الكتابة بها بسرعة كافية؛ قدمها إلى مدير شركة تجارية كبيرة، وأوصاه بها خيرا، ورشحها حسن وجهها قبل أن ترشحها الكفاية؛ فأفرد لها حجرة قريبة، فيها سجادة نفيسة، وكراسىّ مكسوة بالجلد الثمين، ومكتب ضخم عليه لوح من البلور، ومروحة كهربائية للصيف، ومدفأة للشتاء، وعنقود من مصابيح الكهرباء يتدلى من السقف، وقال لها: «إن مرتبها فى البداية ستة جنيهات، وإنه يزيد مع الاجتهاد»، وغمز بعينه وهو يضيف إلى ذلك، أن حظها بين يديها.

وفى اليوم التالى دعاها إليه؛ فوقفت بين يديه، فأومأ إليها أن تقعد وشرح لها واجباتها، وهى هينة، لا تتجاوز كتابة بضع صفحات أو رسائل على الآلة الكاتبة، وإثبات تواريخها وأرقامها

فى دفتر، والاحتفاظ بصور منها فى الملفات الخاصة بموضوعاتها المختلفة، وسألها عن أبيها وعمله، ومسكنها، والطريق الذى تسلكه. كان يهش لها ويتلطف فى الحديث معها، يكرر لها أن لا حد لتجزية المجتهد على اجتهاده، وقال لها وهو يصرفها بلطف إن فى وسعها إذا شاءت أن تستلف من مرتبها. واقترح عليها أن تقترض نصف مرتب شهر، على أن ترده أقساطا؛ فشكرت له عطفه.

ولكن الأستاذ حليم نصح لها بأن لا تفعل، وقال: «إنه خير لها أن تأخذ مرتبها كاملا فى أول كل شهر؛ ليتسنى لها حسن التدبير، وإقامة الأمور على حدود مضبوطة، والتصرف بغير اضطراب، وحذرها من المدير؛ فما يعرفه معرفته، ولا هو مطلع على دخائله، وقد يكون المراد من اقتراحه التعسير لا التيسير؛ لتضطرب أمورها فلا تنقطع حاجتها إليه للاستئذان فى الاستسلاف، فيبدو كأنه يغمرها بفضله، وهو ما عدا أن شجعها على التطلب، حتى لا يبقى لها آخر الشهر سوى (شوية) يسيرة لا تبلغ أن تكون كافية. هكذا تظل فى عسرة دورية وحاجة إليه لا تنتهى. ومن يدرى حينئذ، ماذا يحاول؟ وبماذا يهم؟ وختم محاضرته بقوله: «إنى أراه فخًا فحاذريه».

فتحرزت، وصبرت على قلة الخير، واستحقت فى آخر الشهر مرتب عشرة أيام، فلم يحمل إليها أحد شيئًا، ومضت وهى لا تسأل ولا تعطى، فعادت إلى الأستاذ حليم فقال لها: «لعلهم آثروا أن يضموا الأيام العشرة إلى الشهر الحالى، أو عسى أن

يكونوا قد أسقطوها من حسابهم وعدوها أيام تجربة، ومرانة على العمل. على كل حال يحسب أن تنتظرى وتتأنى وافرضى أنك لم تلتحقى بهذه الشركة إلا اليوم، وأجرك على الله، وحذار أن تظهرى اللهفة، أو تقولى أو تفعلى ما يدلهم على أنك لست بخير؛ فما أرانى أطمئن إلى هذا المدير وأن صدرى لتحك فيه أشياء منه، لا أدرى لماذا. فما أنبأنى بشيء كاذبا».

وكان المدير مقتصدا فى ملاطفتها، غير مسرف فى حفاوته بها، فزال ما كان يهجس فى خاطرها من كلام الأستاذ حليم وسوء ظنه، أو فتر على الأصح، وكان ربما دخل عليها غرفتها؛ فتنهض، فيشير إليها أن تقعد، ويقول: «لا داعى لهذا. ثم إنى لن أطيل الوقوف»، ويحدثها فيما جاء له، فإذا امتد نفس الكلام؛ قعد على ذراع كرسى واعتمد على مكتبها، ويسألها أحيانا وهو يهم بالانصراف عن عملها، أهو ثقيل؟ وهل هى راضية عنه؟ فتشكره؛ فيهز رأسه، ويخرج.

(٢)

ومضت الأيام، ولم يحدث شيء. وأقبل الشتاء، فكثر العمل وقلت فترات الراحة، ولكنه كان على الجملة أطيب وأخف على النفس من العمل فى الصيف. وكانت تعود إلى مكتبها فى الشركة بعد الظهر، فى الساعة الرابعة وتمكث إلى السادسة، وكثيراً ما كان يصرفها المدير قبل ذلك؛ رفقا بها، إذا لم يكن ثم ما يستلزم بقاءها.

وانتظمت حياتها، واطردت على وتيرة واحدة: فكانت تخرج من بيتها كل صباح - ستة أيام فى الأسبوع - فى منتصف الساعة الثامنة، فتبلغ الشركة حوالى التاسعة، فتدخل غرفتها الدافئة؛ وتنضو معطفها، وتنظر فى مرآتها الصغيرة، وتسوى شعرها، وتصلح ثيابها، ويمر بها الموظفون الآخرون؛ فيحيونها وهم فى مدخل الباب، أو يدخل منهم واحد يثرثر معها لحظة. ويقدم المدير حوالى الحادية عشرة؛ فيدعونها إليه، ويناولها بعض الرسائل، فتشتغل بها إلى الظهر، ثم تتهيأ للخروج فى منتصف الساعة الأولى، المساء يكون عملها أكثر، إلا أنه لا يكلفها شططا.

(٢)

وكان معها فى الشركة شاب ظريف أنيق الملبس رطب اللسان يسمونه «نسيم بك» ؛لسخاء يده ومروءة قلبه، لا مجاملة وتلطفا. وهو شاب أبى له والده الثرى إلا ممارسة التجارة دون الزراعة التى كان مبتغاه أن يشتغل بها فى ضيعته الواسعة. وكان والده صديقًا للمدير «راتب بك» فألحقه بشركته ليتدرب، ووضعه عند أولى درجات السلم ليرقى فيه ويتعلم، فلم يمتعض نسيم بك ولم يتسخط، بل أقبل على ما وكل إليه من الأعمال - تسجيل الرسائل الصادرة والواردة وتوجيهها - بنشاط وخفة ومرح. وكان يقول لزميله فى الغرفة: «اقتد بى يا صاحبى، فإنك خليق إذا ثابرت مثابرتى، وأخلصت كإخلاصى أن ترتقى، حتى تتولى

إدارة هذه الشركة العظيمة . أى نعم، فإنك أولى من صاحبنا راتب بحجرته الوثيرة، ومكتبه الطويل، ومقعده الدوار. ولست أحب أن أذكر إنسانًا إلا بخير، ولكن الحقيقة أنى لا أرضى عن صاحبنا راتب كل الرضى؛ انظر مثلا، إلى الصدرية التى كان يرتديها أمس، أو لا تنظر، فإنها تؤذى العين. هل يليق أن يلبس إنسان صدرية كهذه يخيل إليك أنها من ألوان غروب الشمس، لولا أننا نعلم أنها من صوف؟ وتأمل ربطة الرقبة. . والحذاء. . أوه. . لا لا لا! وإنى لأحاوره وأداوره وأعالج أن أصلح ذوقه، ويبدو لى أحيانا أنى سأنجح، ولكنه يبدو لى فى أحيان كثيرة أخرى، أنه يفلت منى ويرتد وينأى، على أنى لست يائسًا من قدرتى على تهذيبه وتثقيفه. . الصبر طيب يا صاحبى، كما كانت جدتى تقول. . تالله، ما كان أحكمها عليها رحمة الله! ولكنى أضيع وقتك وأشغلك عن عملك، وهذا لا يجوز، كلا، لا يجوز، فإننا هنا ـ أنا وأنت ـ لنجعل من هذا المكتب الذى نحن فيه نموذجًا، أما كيف، فمسألة أخرى، فننظر فيها، حين يجىء أوانها، وسيجىء يوم تسير فيه مصلحة السكة الحديدية قطارًا منصوصة بأجور مخفضة للمتلهفين على رؤية هذا المكتب وزيارته، على نحو ما تسير قطار الآثار فى الشتاء وقطار البحر فى الصيف. والآن يجب أن أكف عن الكلام، وإن كان لا يسعنى إلا الاعتراف بأن حديثك ممتع، فقد آن أن نعمل؛ فإن منافسينا فى التجارة لا يغمض لهم جفن، وهم ساهرون متربصون؛ ليغتنموا فرصة إهمالنا، وقد شاع وذاع وملأ الأسماع، أن نسيم وعزت صديقه الحميم، يقولان ولا يعملان، فأخوف ما أخاف أن تثب

الشركات الأخرى وتخطف من أيدينا تجارتنا . . هيا بنا إذن، إلى العمل» .

ولم يكن المدير يدرى ماذا خبأ له القدر، حين قبل أن يلحق نسيم بك بالشركة مرضاة لوالده، فقد راح يطارده، ويقفو أثره فى كل مكان، وعرف أنه عضو فى ناد فدخل فيه أيضًا، والتقى به ذات ليلة فى النادى فأنغض إليه رأسه بالتحية ومضى إلى المكتبة، فدعا المدير أحد الخدم وأسر إليه شيئًا .

ودخل الخادم على نسيم فى المكتبة، وقال له :

«معذرة يا سيدى، هل حضرتك عضو؟» .

قال : «أنا نسيم» .

فعاد، يسأل : «يعنى أنك عضو؟» .

قال : «برافو . . ما أذكاك! ولست أشك أنك سررت سرور الجميع حين طير النادى الخبر إلى أرجاء المعمورة، وأعلن أنى أصبحت عضواً، أم تراك كنت فى شاغل من عملك حينئذ؟ إذا كان هذا هكذا، فإنى أقدم لك احترامى، فإنى أنا أيضًا أعمل، نعم أنا عضو، فهل لك أن تبلغ سعادة راتب بك، أسفى وأنى عضو وأنى أديت ما يجب أداؤه من رسم الدخول والاشتراك؟» .

وفى ليلة أخرى، دخل راتب بك فى النادى وهو جالس وبين يديه صحيفة، فهوى إلى كرسى إلى جانبه بقوة، فالتفت راتب بك، فقال نسيم : «آه! هذا نحن، إنها دنيا صغيرة؛ فنحن لا نزال نلتقى فيها»، فلم يجب المدير بشىء، فنادى نسيم خادما، وقال

له : أرجو أن تتفضل على بفنجان من القهوة، وأنت يا راتب بك؟

قال راتب بك : «لا شيء».

قال : «ولا شيء لراتب بك»!

وانصرف الخادم، وعكف راتب بك على الصحيفة، فتركه نسيم لحظة، ثم قال : «لقد تلقيت اليوم رسالة من والدى».

فارتمت الصحيفة على حجر راتب بك، وقال وهو ينظر إلى نسيم شزرا «ومالى أنا؟!».

فتكلف نسيم الدهشة والألم، وقال : «إيه يا دنيا؟! من كان يظن أن رجلاً كوالدى ينطوى لك على الإكبار والحب، ورجلا له مثل مواهبك العظيمة، تقع بينهما النبوة وتحل الجفوة؟! على أنى مستعد لإصلاح ما لعله فسد، إذا سمحت لى...».

قال هذا لظهره، فقد ألقى الصحيفة، ونهض وخرج.

ولم يزل نسيم يلج فى تعقب المدير، حتى كف عن الذهاب إلى النادى.

وشكا نسيم إلى زميله عزت بثه وخيبة أمله، فقال :

«إنى لا أدرى ماذا أقول فى صاحبنا راتب؟! ولعلى مخطئ، ولكنى كنت أتوقع أن يرحب بابن صديقه، ويتلقاه فى كل مكان مفتوح الذراعين، ولكنى أرى وجودى فى النادى يثقل عليه، وقد بذلت كل ما وسعنى لأكسب رضاه وأفوز بحسن رأيه ومودته؛ ولكنه كان يقابل جهودى بالسخط والاستنكار ومغادرة المكان..

لم تبق لى حيلة يا صاحبى إلا الصبر، وهو كما علمتك، طيب».

وكان نسيم هذا الذى حمى محاسن من الملل، ورد وجه الحياة وضيئًا، وأشاع فى نفسها الرضى والاستبشار؛ فقد كان لا يفتأ يدخل عليها ويتحدث اليها فيضحكها ويسليها، وقد يدعوها إلى العشاء فيقول لها مثلاً:

«تواترت إلى الإشاعات بأن على مقربة من شركتنا العظيمة التى تعتمد علينا فى أعمالنا الجليلة النافعة، مطعمًا يتكفل بأن يوفر للإنسان ما أتلف الكد فى العمل من أنسجة البدن، بثمن زهيد...

وقد نظرت الساعة إلى وجهى فى المرآة؛ فراعنى ما عراه من الذبول والتغير، فقلت لنفسى: إنك يا نسيم، ضحية الإخلاص فى العمل، وإنى لأخشى أن يقتلك اجتهادك، وحينئذ، ماذا يكون؟! وكيف تقف هذه الشركة على قدميها بدونك؟! فما قولك؟ أليس هذا حقًا؟».

فتضحك محاسن، وتسأله: «ثم ماذا؟».

فيقول: «وأنت أيضا، صاحبنا راتب يرهقك، بما يكلفك فوق طاقتك وسأخاطبه فى هذا، وأؤنبه عليه، ولكنه لا يجوز - ولا يفيد - أن أفعل هذا ومعدتى فارغة، وجسمى هزيل، ولونى ممتقع، وصوتى خافت من الضعف، فتعالى نجرب هذا المطعم الذى يقول عنه رواده أنه هو المطعم الذى يحتاج إليه، وكان يبحث عنه أساطين التجارة وأقطابها وعمدها وأسنادها مثلنا...

وسننظر فى أمر صاحبنا راتب فيما بعد، وإنه ليعز على أن أدعه ينتظر، وما أشك فى أنه سيقضى ليلته حائرا قلقا مسهد الجفن، ولكنه لن يضيره أن يتعلم الصبر، كما تعلمناه نحن العاملين المجدين.. فتعالى».

وكان خير ما فيه أنه لا يحاول أن يغازلها، كأنها رجل مثله؛ فكانت تحمد له سيرته معها، وتخلد إليه بالثقة ولا يساورها قلق، وإن كان لا يرضيها فى سريرتها أنه لايبدو عليه أنه يشعر بأنها فتاة لها جمال وفتنة. على أنها كانت تتعزى بأنه ما كان ليقبل عليها ويطيب نفسا بصحبتها لولا أنه يرى أن لها حظا من الجمال، وحدثت نفسها أنها تؤثر أن يظل كما هو، لا يغازلها بغزل.

(٤)

وكان نسيم متكئًا على مكتبه ـ ذات مساء على عادته بعد أن يفرغ من عمله، فقال له عزت: «اسمع يا نسيم».

وكان الموظفون جميعا يحرصون على تلقيبه بالبيكوية، فاستغرب إسقاطها الآن، وأحس أن أمرًا جللا أنساه ذلك، ولم يكن يعبأ بهذا، أو يبالى كيف يخاطبه الناس، ولكن مخالفة العادة تلفت النظر.

فقال: «هات ما عندك يا صاحبى، فقد أعرناك السمع. قل وأفض، فإنه يخيل إلى أن على صدرك أكثر من هذا القميص الذى أستأذنك فى القول. إن ألوانه شتى لا تعجبنى، وإذا كان ما

بك من الهم ثقيلا كألوان قميصك؛ فإن لك أن تثق بعطفى . . فألق بكل ذلك أمامى ـ بالهم وبالقميص جميعًا»!

قال عزت: «إن محاسن فى غمرة . . .».

ـ «محاسن فى . . . ماذا تعنى على وجه الدقة؟».

ـ «أعنى أن صاحبنا يصب على رأسها وابلا من التأنيب والتوبيخ».

ـ «هل تريد أن تقول: إن زفيفا من غضبه هب عليها؟».

فضحك عزت، وقال: «إنه إعصار. لقد دخلت عليه الساعة، وأوكد لك أنه كان يرمى بكل ما على مكتبه، ويزمجر، ويزأر، وينفخ، ولا يتيح لها فرصة الكلام».

فقال نسيم: «مسكين، وإنى لأرثى له».

فتعجب عزت، وقال: «ترثى؟! أولى أن ترثى لها. . لقد نهرنى وطردنى، ولا أكتمك أنى خرجت أعدو».

«وماذا كان يقول لها؟».

« لم ألبث لأسمع، فقد رمانى بنظرة تشك كذبابة السيف».

فقال نسيم: «إنى مع إعجابى بقوة حنجرته، وبراعته فى بعثرة الأشياء وعلو لسانه فى التقريع ـ لا يسعنى إلا أن آخذ علمًا رسميًا بما أبلغتنى؛ فإن محاسن فتاة حساسة رقيقة الشعور، ولست أقبل أن يتلف لها صاحبنا راتب، أعصابها على هذا النحو، وسأنظر فى الأمر، وسأسأل محاسن، ولن أتهور أو أطيش، فإذا وجدت أن

لصاحبنا راتب عذرا فى انفجار بركانه الآدمى؛ فإنه سينجو من العقاب، أما إذا تبينت أنه أساء إلى محاسن بلا موجب؛ فإنى أكون مضطرا إلى إنصافها منه».

وكانت محاسن ـ لما دخل نسيم ـ مذهولة. ولم يكن يخفى عليها أنها أخطأت خطأ فاحشًا، فى كتابة ما وكل إليها، وزادت فى خطئها، ووضعت بعضا مكان بعض، وعنونتها إلى جهات غير جهاتها؛ فدق الذين تلقوها التليفون للمدير مستغربين، ولكنها كانت قد قضت ليلة سوداء لم يغمض لها فيها جفن، فقد انتاب أمها مغص كلوى شديد، وقد تركتها؛ فكان ما كان من الخطأ والتخليط.

واطمأنت على أمها فى المساء، فلما كان اليوم التالى، وجاءت إلى المكتب وراجعت صور الرسائل، فطنت إلى ما وقعت فيه من أخطاء شتى، وهمّت أن تطلع المدير على الحقيقة، ولكنه سبقها فدعاها إليه، وكان أكبر ظنها أن يلفت نظرها ويسألها عن علة هذا الخطأ، حتى إذا عرف؛ عذر، والأمر على كل حال هين، وليس من شأنه أن يضر الشركة أو يجر عليها خسارة. ولكن الذى لم تكن تتوقع، هو أن تتلقى كل هذا التوبيخ الأليم واللعن الوجيع، وفوقه الطرد من الشركة، على ذرى أمواج كالجبال المتقلعة من البذاءة.

وماذا تصنع الآن؟ أى عمل آخر يمكن أن تظفر به؟ وما العمل إذا لم توفق إلى وظيفة؟ قد بالغ أبوها فى التقتير فى النفقة؛ لما علم أن لها مرتبًا؟!

أدارت كل هذا فى نفسها وهى حائرة، واجمة، وطحنت بأضراسها نصف القلم الذى كان فى يدها، وهى لا تدرى. وإذا بنسيم يدخل، ويقول بلا تمهيد: «اتصل بى، إن صاحبنا راتب كان يمتحن أمامك مقدرته الخطابية أو مبلغ ذلاقة لسانه وقوة بيانه، فهل أقنعك بفصاحته وبلاغته؟».

فوثبت إلى قدميها، وقد خطر لها أن نسيم هو الرجل الذى يسعها أن تعوذ به فى محنتها.

وقالت بسرعة: «اسمع يا نسيم ـ وأهملت هى أيضًا البيكوية ـ (كل امرئ يهملها اليوم) ـ إنى فى مأزق، وقد تستطيع أن تشير على كيف أصنع. فهل لك أن ترافقنى إلى مكان أشرب فيه فنجانا من القهوة؟».

قال: «اقتراح سديد، ولا شك أن الشركة ستفتقدنى، وتبحث عنى فلا تجدنى، ولكن صاحبنا عزت كفء لتصريف الأعمال فى فترة غيابى، وأنا أثق به، ففى وسع الشركة أن تطمئن، فلنذهب إذن؛ لتشربى قهوتك، ثم تقصّى على القصة بالحرف الواحد، يعنى من غير أن تنسى براعات صاحبنا راتب، فإنه ـ كما تعلمين بالتجربة وأعلم بالسماع ـ من فحول البلغاء، وقد اتصل بى من مصادر شتى لا يرتقى إليها الشك أنه كما يقول الفرنجة: قد فاق نفسه»!

قال بعد أن سمع القصة: «هذه الحدة المباغتة من أجل غلطة يسيرة تبدو لى غريبة. وقد درسنا ـ أنا وأنت ـ الطبيعة الإنسانية درسا عميقا، وغصنا فى بحرها طويلاً، فنحن لا نستطيع أن نسلم

بأن خطأ ما، من آنسة رقيقة مهذبة، يمكن أن يهدم سدود الأدب كلها ويطلق كل هذا السيل المتدفق من السلاطة، ولا شك أن صاحبنا راتب، غليظ الطبع، وقد أتعبني ترقيقه، ولولا ما تعرفين من طول أناتي وحلمي وحبي لخيره لقنطت، ولكن آل نسيم براحهم بطيء. ولكنا نتحدث عنك، لا عن آل نسيم، وإن كان الكلام فيهم يطيب ويحلو، ويعز على أن أحرمك لذة الاستماع إلى وصف ما وهبهم الله من السؤدد والنجابة وآتاهم من العزم والحزم، ولكنه ما كل ما يتمنى المرء يدركه يا صديقتي.. فاصبرى وتجلدى، وحسبك عزاء عن هذا الحرمان أن نوعا من هذه الدوحة الكريمة الأصول، يجلس معك ويؤنسك ويطربك، ويطيب خاطرك.. كلا، لا داعى للشكر.. والآن، نعود إلى مولانا راتب، فهل تظنين أن الأصوب أن أدخل فى هذا الأمر أو أخرج؟»

قالت: «لست فاهمة»!

قال: «معذرة، إنما أعنى أن من السهل أن أذهب إلى مولانا راتب، وأقول له: اسمع يا صاحبى، لقد كنت عنيفا، سليطا، طويل اللسان، مع صديقتى محاسن، من أجل غلطة تافهة ميسورة التدارك. وأنا لا أسمح لإنسان أن يخاطبها بهذه اللهجة التى تغرق الشعر الجميل المسدل على أذنها الصغيرة وتحرجها؛ فعجل بالاعتذار إليها، والتمس الصفح منها، واجث على ركبتيك بين يديها، فإن فعلت؛ فإنى أعدك أن أعينك على تألفها من نفرتها، وإلا فأنت الجانى على نفسك، يا براقش هذا

العصر». وبعد أن أفرغ فى كلتا أذنيه هذه الخطبة البليغة. . .

فضحكت محاسن، وقالت: «عفوا وشكرا، ولكن ما يدرينى ويدريك؟! لعله أصم. . .».

فقاطعها، وقال وهو يلوح بيمناه: «إذن، نهمل مولانا راتب، ولا نعنى أنفسنا بتهذيبه وإصلاحه. الحق معك، فإنه ليس أهلا لكل هذا العناء. ولقد ساورتنى الشكوك من زمان طويل، ولكنى كنت أشفق عليه وأقول لنفسى: مهلاً يا نسيم. . إذا كنت ستنفض يدك منه، فمن ذا غيرك يتولى إصلاحه، على كل حال. . .».

فقالت محاسن: «اسمع، إنى أرجو أن لا تشغل نفسك بهذا الأمر فقد انتهى. وكان ما كان، ولن أعدم وظيفة فى مكان ما».

قال: «وما حاجتك إلى وظيفة وأنت موظفة؟! يخيل إلى من يسمع كلامك أنك عاطلة».

قالت: «ولكنى طردت، فكيف أكون موظفة؟».

فهز رأسه وهو يبتسم، ثم قطب، وقال: «ومن هذا الذى يجرؤ أن يطردك وأنا حى أرزق؟».

فوضعت يدها على يده وقالت: «خلنا فى الجد. . أرجوك»!

قال: «وهل أنا أهزل؟! ألا تعلمين ـ أترانى نسيت أن أخبرك ـ أنك مستشارة خصوصية لى؟ لقد كنت أظن أن الواقع من الأمر يغنى عن التبليغ الرسمى».

قالت: «شكراً لك، وإنك لظريف وعطوف، ولا أدرى ماذا

كنت أصنع لولاك، ولكنك تعلم ـ كما أعلم ـ أنى لا أستطيع أن أدعك تفعل هذا . . إنها لمروءة عظيمة، ولكن . . . » .

فقال : «إنك تؤلمينني يا صديقتى ، وهذا الذى تقولينه لم يجر لى قط فى خاطر ، وأنا وأنت من رجال الأعمال ؛ أعنى أنى أنا من رجال الأعمال وأنت من . . . من . . انظرى كيف تخذلنى الألفاظ ، فكيف بمن هم دونى امتلاكا لناصيتها؟ ! نعم ، كلانا تاجر شاب ، وقد عرضت عليك عملا ، فإن التجار لا ينفقون أموالهم جزافًا ، عرضت عليك هذا بالفعل ، لا بالقول ؛ فرحبت به بالفعل أيضًا ، لا بالقول ، ويسرنى أن أبلغك رضاى عن حسن أدائك لواجباتك وإن كانت خفيفة هينة إلى الآن ، فما زادت على رفض الدعوات التى تلقاك من أصحاب التيجان ، والإصغاء إلى آرائى القيمة فى الحياة والناس ، وقد كان أجرك زهيدًا أيضًا : فنجان قهوة ، أو تذكرة سينما ، أو عشاء خفيفا» .

فقالت : «لا تمزح . . فإنى . . . » .

قال : «لا تقاطعى من فضلك ، فإن حسن الإصغاء فى صمت وسرور هو أول واجب على المستشار الخاص ، كنت أقول : إن واجباتك إلى الآن ، هينة وكذلك أجرك . ولكنى قررت أن أضيف إليها واجبات جديدة ، وأن أزيد الأجر ؛ فإنه ينبغى أن يكون على قدر المشقة ، وعلى قدر الاجتهاد تكون الترقية . . . نعم ، ترقيتك من مستشارة إلى . . . » .

قالت : «لا أدرى كيف أشكرك ، ولكنك تعلم أن هذا إحسان» .

قال : «إحسان . . يا له من لفظ ثقيل ، قبيح ، وإن كان فى ذاته جميلا! ولكن مالنا وللإحسان الآن ، ونحن نتكلم فى أعمالنا التجارية؟! أرجو ألا تقحمى هذا اللفظ مرة أخرى فى أحاديثنا الجدية واسمعى ، لقد هدانى التفكير الطويل العميق إلى أن فلاحا مثلى ، لا يفيده ما تعلم من التجارة التى حذقها علما وعملا ، وأحاط بها خبراً ، إلا إذا طبق ما أفاد من المدرسة ومن تجاربه فى الحياة . وقد تعلمين ، أو لا تعلمين أن لى ضيعة عظيمة ، كانت أمى بعيدة النظر ، صادقة الفراسة فى نجابتى ، فأورثتنى إياها ، وخلفتها لى ، وفلاحونا لا يحسنون الزراعة ، فمن واجبى أن أتعلم وأعلمهم كيف يتقنونها ؛ لتكون الغلة وافرة ، وهناك واجب آخر . ذلك أن فلاحينا قد يجيدون زرع الأرض ، ولكنهم لا يحسنون عرض المحصول للبيع ، ما أكثر ما يوكسون ويبخسون ، ويغبنهم سماسرة السوء ، وهم إذا ربحوا مرة يخسرون مرات ؛ لجهلهم بالتجارة ، فواجبى ـ وأنا الخبير الحاذق ـ أن أعلمهم كيف يبيعون ، لأستفيد ويستفيدون . ومن هذا البيان ، ترين يا صديقتى أن واجباتك كمستشارة لى ستكون عديدة وشاقة . وأنا واثق من قدرتك على الاضطلاع بهذه الأعباء الجسيمة بفضل ما اكتسبته من الخبرة فى هذه الشركة ، وما استفدته منى فى أحاديثنا الكثيرة . . وعلى ذكر الشركة أقول إنه يحسن أن نذهب للقاء مولانا راتب ، فما أشك فى أنه الآن ، قلق مضطرب يتساءل عنى ، أين اختفيت ، وماذا يصنع بغيرى؟!» .

فسألته : «نذهب إليه؟! وأنا . . . أنا . . . ما الداعى؟!» .

قال: «وجودك ضرورى، لا بد منه. وأول درس يجب أن تتعلميه فى وظيفتك الجديدة، وإن كانت قديمة، هو طاعة الرئيس... تعالى».

وذهبت معه إلى النادى وهى قلقة، فألفيا راتب بك فى حجرة المكتبة يدخن «سيجاراً» ضخماً. وكان قد علم أن نسيم انقطع وكف عن الحضور، فاطمأن وعاد يختلف إلى النادى فى أوقات الفراغ.

وقبل أن يدخلا عليه دعا نسيم الخادم وأمره أن يجيئه بكأس من الكونياك المعتق. وقال لمحاسن وهو يدخل بها وبالكأس فى يده:

«لا تحسبى أن هذا الكأس لى، فإنى لا أشرب خمرا، ولكنها لمولانا راتب، فإنه يوشك أن يتلقى صدمة، وقد يحتاج إلى منعش، وما أظن به إلا أنه ضعيف القلب، وإن كان عالى الزعقات. على كل حال، لا ضير من الاحتياط».

ودخل ويده ممدودة بالكأس. ورأى راتب بك هذا الموكب؛ فدهش وقطب، ووضع نسيم الكأس برفق على المنضدة أمام راتب بك وجلس إلى جانبه، وجلست محاسن إلى الخلف قليلا، تكلف المدير قلة الاكتراث وتظاهر بأنه لا يراهما، وأقبل على سيجاره يمص وينفخ الدخان.

ولكن نسيم لم يتركه، فقال بلهجة الأسف: «إن واجبى ثقيل، وأنا أؤديه وأنا كاره له، فهل أنت مصغ يا راتب بك؟».

فقال راتب بك: «قابلنى فى المكتب».

فقال نسيم: «آسف، فلن ترانا غدا فى المكتب».

وقرب الكأس من راتب بك.

ومضى هو فى كلامه، فقال: «خذ رشفة من هذا، تشجع، وثق أن الصدمات لا تلبث أن يفتر أثرها، وإن كانت تَدوِّخ فى أول الأمر، وبعد أن نفيق نجد أن الشمس لا تزال تشرق، وأن الدنيا مازالت بخير».

فضجر راتب بك، وسأله بحدة: «ماذا تريد؟!».

قال: «العجلة من الشيطان، لقد كنت أريد أن أخفف من وقع الخبر الأليم بالتلطف، ولكن كما تشاء.. اعلم إذن، أننا قررنا ـ أنا والآنسة محاسن ـ أن نستقيل من عملنا بالشركة، وإنى آسف، ولكن للضرورة أحكاما، ونصيحتى لك أن تتلقى هذا بالصبر».

فكاد الرجل يثب من الغيظ، وهم بكلام ولكن الله لم يفتح عليه بأكثر من: «من أنت يا... يا...»، ولعله خشى أن يخسر المعركة إذا هو جازف بمنازلة هذا الفتى الذرب اللسان؛ فأمسك وانحط على الكرسى.

وقال نسيم وهو يخرج ويجر محاسن: «ليس هذا ما كنت أتوقع، وإنى لأعلم أنها صدمة قوية، فإن الخسارة لا تعوض، ولكنى كنت أظن أنك أعقل وأذكى من أن تحاول إقناعها بالبقاء... لا لا.. كان ظنى بك غير ذلك»!

وخرجا.

وتركا الرجل ينفخ، ويضرب كفا بكف...

(٥)

«هنئنى يا أستاذى»!

«مبروك. ولكن ما هى الحكاية؟»!

«أصبحت مستشارة. . .».

«مسـ. . . مستـ. . . تعنين. . . ماذا تعنين؟!».

«ألا تعرف ما هو المستشار؟! يطرح عليك الموضوع، فتبحثه وتدرسه، ثم ترى فيه الرأى، فيؤخذ بما ترى».

«فهمت. . أعنى. . . ألا يمكن أن تبدئى من البداية؟»

فقصت عليه محاسن القصة، فهز رأسه، وقال «يخيل إلى أن هذا أمر له ما بعده».

قالت: «إنك سيء الظن»!

قال ليست المسألة مسألة سوء ظن أو حسن ظن، وكل امرئ ـ إلا أنت على ما يظهر ـ يستطيع أن يفطن إلى الآخر من هذا الأول، ومن الجلى أن نسيم هذا يرمى إلى الزواج».

قالت: «ولكن هذا مستحيل. . من أنا حتى يتزوجنى؟! أما قلت لك إنه واسع الغنى؟!».

قال الأستاذ: «لا تكونى بلهاء. . الرجل يحبك. ما فى هذا شك، وفقرك لا يعنيه، لأنك أنت همه، لا المال الذى عنده منه فوق الكفاية».

قـــالت : «ربما : ولكن هذا لـم يـخطر لى قط ، مـــاذا أصنع الآن؟ !» .

قال : «لا شيء . تبقين كما أنت ولا تغيرين شيئًا من حولك معه حتى يخطو هو الخطوة الثانية» .

قالت : «وماذا يكون العمل حينئذ؟ !» .

قال : «الأمر واضح ، ترجعين إلى الطبيب ؛ لينجز لك وعده»
قـالت : «لا أستطيع أن أخدع نسـيمًـا . . وأنت تعلـم أن هذا هو الذى دفعنى إلى مجافاة محمود» .

قـال : «يا مـحـاسن ، أطيـعـينى ولا تركـبى رأسك . إنك فـتـاة حصان قـاصرة الطرف ولست بغرور فاجرة . والذى كان ، إنما كان بسـوء الحظ وكـان الذنب كله لى . وليس العـدل أن تبـوئى أنت بإثمه ، وأن تظلى طول عمرك ضحية له ، فما جنيت شيئًا ، وإنما أنا الذى جنيت ، وقـد يسر الله النجـاة ، ومن العسير أن تقنعى شابًا يحبك ويكبرك ويعرف فيك العفة والتحصن ، ببراءتك إن كان لا شك فيـهـا ، وعـهـدنا بالـرجل أن يكون كـريمًا رحب النفس واسع العقل ، يؤثر على نفسه فى كل شىء إلا فيـما يتعلق بامرأة يحبهـا ويريدها لنفسـه ، فإنه ينقلب أنانيًا فظًا لا يغضى عما يرى أو يسمع من هناتـهـا ، ولو كـان لا ذنب لهـا فيـهـا ، ولا يتغـافل عـمـا كـان أن يكون منها ولو فلتة وبرغمهـا ، وهذا هو الأغلب والأعم ، وهناك من لا غيرة لهم ، وهؤلاء قلة ، ولا يقـاس عليهم ، فـاسمعى منى ؛ ولا تحملى نفسك وزرًا ليس من العـدل أن تحمليـه ، ولا تضيـعى نفسك وتشـقيهـا بقلة العقل ، وبالإسراف عليهـا فى الظلم ، ولا

تخيبى أيضًا أمل هذا الشاب. ولو كان أسن، أو أكثر تجربة للحياة وعثرات الحظ فيها لأشرت عليك بخلاف ذلك؛ أى بالمصارحة، ولكنه غنى مرفه لم يعرف إلا التوفيق ولم يشعر بغير الاطمئنان والثقة، ولم يبل ما فى الدنيا من ظلم ونكد طالع، وعرك ووطء وتفتيت، وقد يكون على خلاف المعهود فى أمثاله، ولكن السلامة فى الاحتياط والتحرز، فأطيعينى من فضلك، تسعدى».

فقالت: «إن عقلى مقتنع، ولكن قلبى يحدثنى أن الأكرم والأشرف ـ إذا تكلم ولست أظنه فاعلا ـ أن أصارحه بكل ما كان، بلا زيادة أو نقص، ولم لا؟ لست متزوجة رجلا إلا بعد أن يعرفنى على حقيقتى، بلا تمويه أو تزوير».

قال: «هذا أكرم ولا شك. ولن تعدمى رجلا يفهم ويعذر ويهمل الأمر كله، ثم يجىء يوم يغضب فيه لأمر ما؛ فيتحرش لك، ويعيرك بزلة يحمل تبعتها سواك، فى الحقيقة، ويمن عليك بالصفح عنك؛ فيفسد الأمر كله ويسود عيشك بعد ذلك. . . كلا. إن الذى أشير به أسلم وأحكم. . حتى نرى أى رجل هو؛ أعنى نسيمًا هذا».

فردت، وقالت: «على كل حال، لا يزال أوان ذلك بعيدًا».

قال: «لست أراه بعيدًا، ومع ذلك يجب أن توطنى نفسك من الآن على أحد النهجين».

* * *

وأقلق الأستاذ حليم ما سمع منها، وكان هو فى سريرته يؤثر

المصارحة، فإنها أقوم وأسلم فى النهاية، ولكنه أشفق عليها أن تكفر بالعدل فى هذه الدنيا.

واستغرب أنه فاته فى حديثه معها أن يسألها عما تطوى لنسيم هذا. أهو يبلغ أن يكون حبًا؟ أو هو يقاربه ويسهل أن ينمو كالماء يعمِّق تحدر مجراه؟! ولا شك أن محاسن تستظرفه؛ فإنه على ما يستفاد من كلامها خفيف على الأفئدة، فوق أنه كريم معوان، غير منان، يعطى مبتدئًا وكأنه هو الذى يأخذ، ويصنع معك الجميل ويزجى إليك الشكر كأنك صاحب الفضل فيه. وأخلق بمن كان خفيف الروح، سخى اليد، ذرب اللسان، حلو الفكاهة، حسن المعاشرة وظريفها ـ أن تفتح له القلوب. ولا ريب فى أنه يحبها وإلا لما صنع كل هذا لها، ولكن هل هى تحبه؟! ولعلها لو سئلت لترددت. فقد خيل للأستاذ حليم أن نسيمًا حملها وطار بها بجناحين من ظرف الشخصية وحلاوة اللسان، فهى مدار بها لا تدرى إلى أين يمضى بها، لا، بل لا ترى فى طاقتها حتى أن تفكر لسرعة الكر والخطف فيه، ولما يشغلها من فتنة القول والعمل وتعجبها لجدتها عليها أيضًا. فما رأت من قبل أحدًا كنسيم.

وماله! ألا أثر له فى الموضوع؟! أليس المال كل شىء فى دنيانا هذه؟! أليس هو الخير والشر، والفضيلة والرذيلة؟! أليس كل أمر مرتهنًا به إذا اعتبر الواقع؟! من يدرى؟! فإن للمال سحرًا. وقد رثت حال محاسن، وعانت ضنوكة غير هينة، لا لفقر بأبيها، فما أنزف ولا أكدى، وإنما طاش وماق، وكان ما كابد وثقل عليها من الشدة والشفق هو الذى دفعها إلى التماس الكفاية من طريق

الوظيفة، فالتقت بهذا الشاب، وما كادت تخفق حتى دفع يده؛ فانتشلها وأنقذها من العود إلى الحاجة والتطلب، فماذا يمنع أن تطمع فى خصب العيش ونضارة الحياة ووفرة الخير والاستراحة من هذا الهم؟! ولن تحتاج إلى تكلف التحبب إلى مثل نسيم فإنه محبب إلى القلوب.

وخطر للأستاذ حليم أنه قد يستطيع أن يمتحن مروءة نسيم ورحابة نفسه وسعة عقله، ومبلغ استعداده للتسامح والإنصاف، فيقص عليه قصة محاسن معزوة إلى غيرها، ثم ينظر وقعها فى نفسه، فإذا ساء الوقع؛ ظل على ما أشار به عليها من الكتمان، وإذا رآه يتلقى الأمر بصدر واسع وإدراك صحيح؛ كان لا بأس مما تذهب إليه محاسن من المصارحة. . فى أوانها. غير أن هذا يتطلب أن يعرفه أولا، وأن يخالطه زمنًا متريثًا متربصًا، فما يعقل أن يروى له الخبر فى أول لقاء لهما.

وصار السؤال: هل ترضى محاسن أن تمهد له هذا التمهيد، وأن تدعه يمضى فى هذه التجربة؟

ودار فى نفسه أن لو كان هو أصغر سنًا، وغير ذى زوجة وولد. . . لماذا قسم له أن تكون زوجته مستعصية عنيدة؟! لقد كان يحبها ومازال غير كاره لها وما انفك مستعدًا أن يصل ما انقطع، ويستأنف ما مضى وصار كأنه من أخبار القرون الأولى. ولكن هيهات وسيظل، ولا ملاذ له غير خياله وأحلامه، وأنها لأطيب من الواقع؛ فإن الحقيقة محدودة بحدود الطاقة التى لا سبيل إلى مغالطة النفس أو غيرنا فيها، وما يستفاد منها من المتعة

ينقصه، وكثيراً ما ينغصه، ما تخطئه ولا تجده عند شريكك مما تطمع فيه وتتطلع به، ولعلك كنت تحلم به. أما فى الخيال فإنك تتصور ما شئت كيف شئت، على هواك، وتخل نفسك من الطاقة ما حلا لك. وليس للمرء سلطان على الأحلام. ولكن الراسب فيما وراء الوعى يطفو فيها، والكامن يبرز، ويتمثل ويتجسد، وتتألف منه صور بعضها مما يشتهى، ففيها قدر من العوض، عما حرمه بسوء حظه.

وحدث الأستاذ حليم نفسه أن أكبر ظنه أنه لطول ما عاش بين خيالاته وأحلامه؛ خليق أن لا يرضى عن الحقيقة لو تيسرت له، فإنها لن تكون إلا دون ما يرتسم فى ذهنه من الصور. ثم راجع نفسه وقال: إن هذا شأن كل إنسان. فما من إنسان إلا وهو يحلم ويتخيل إلا أن يكون بليداً مغلق النفس. وما من أحد إلا وهو يدرك إلى حد ما بعد ما بين الحقيقة والخيال. وبعض الناس لا يبالى هذا الفرق ولا تعنيه إلا الحقيقة وما يفيد منها، والبعض يلوذ بخياله ليسد له النقص ويعوض ما فاته، وهؤلاء مساكين؛ فإنهم إذا لجوا فى التخيل، أو لجت بهم الحاجة إليه؛ كانوا خلقاء أن يتبرموا بالحياة ويتسخطوا حظهم ويستقلوا نصيبهم من خيرها. وأشقى الناس من كانوا مثله، قد سلبوا الحقيقة كلها وحرموها أجمعها ولم يبق لهم من مسعف سوى هذا الخيال، وإنه ليسعف ولكنه لا يرضى ولا يقنع، وما تزداد به النفس إلا اشتهاء لما عزَّ مناله، ولاتزداد به الأعصاب إلا تعبًا وإعياء، ولاتزداد به الطبيعة إلا تشويها ومسخا.

ورثى الأستاذ حليم نفسه، وتنهد، وأحس أنه مشف على البكاء، ثم كبح نفسه واستحى أن يتلقى - حتى فيما بينه وبين نفسه - ما تجيء به الحياة بغير الصبر والجلد. وقال إن له أسوة حسنة فيمن يعيشون رهبانا وزهاداً. ثم عاد يقول إن هؤلاء لا تكون حالهم خيرا من حالى إذا كانوا قد حملوا على الزهادة. أما إذا كانت الزهادة عن رأى أو عقيدة؛ فذاك حرىٌّ أن يعينهم على الاحتمال، ويشغلهم ويصرفهم عما أشاحوا عنه. ثم هز رأسه وقال: «ومع ذلك ما أظن بهم إلا أنهم يحتاجون إلى رياضة شاقة طويلة، بل دائمة، وإلى التلهى عما تركوا - أى نعم التلهى - بالعكوف على ما انقطعوا له. وتساءل، أترى لا تخايلهم صور ما زهدوا فيه؟ لا بد أنها تلوح لهم أحيانا فتقض مضاجعهم وتؤرق جفونهم. وكيف يستقيم بال من يخالف آيين الحياة»؟!

وسندعه لخواطره هذه، فحالها انتهاء. وإنه لينفرج ويذهب بها هنا وهناك، ثم يكر إلى رأسه أمره، ولا حيلة له يعرفها، ولا مخرج يهتدى إليه، إلا أن يتخذ خليلة، وقد خطر له هذا مراراً؛ فنحاه.

استعاذ بالله منه، واستبشع أن يطوف برأسه. وحدث نفسه أنه حتى لو كانت نفسه تطاوعه لما عرف الوسيلة. وضحك وقال: ثم إن الخليلة تكلف مالا، يفتح الله يا سيدى؛ الأحلام أرخص!

(٦)

كانت أعمال «المستشارة» هينة طفيفة لا تأخذ من وقتها إلا قدر ما يضيع من وقت المترفات المنعمات فى المنازه والمطاعم ودور السينما: فهى فى بيتها معظم النهار إلا إذا دعاها إلى الغذاء. ثم تلقاه فيتنزهان ساعة، أو يدخلان ملعبا أو ينتحيان ناحية فى «جروبى» أو «صولت» وما ماثلهما، ويتعشيان فى الأغلب، ويفترقان.

وكان معها على ما عودها من الحذلقة الظريفة، واللطف والتحفى فى غير مبالغة، ودون تكلف للتودد. وكان مرتبها عشرة جنيهات، غير ما تحتاج إليه لثيابها وزينتها. وقد اعترضت على هذا وقالت: إنها لا تستحق منه قرشا وأنه يعودها على البذخ، فماذا عساها تصنع إذا فقدت وظيفتها الجديدة؟!

فقال لها: «تعالى نتفاهم. فإنى أراك تجورين على، وتوسعين نطاق حقوقك، وتعتدين بذلك على حقوقى. نعم، فإن عمل المستشار هو أن يشير لا أن يعترض، والاعتراض هو عملى أنا. ويجب أن يعرف كل منا وظيفته ويقف عند حدودها، فإنى أخشى أن تتداخل الحدود ويختلط الأمر، ويضطرب الحال، وقد عرضت عليك وظيفة مستشار، ففرغنا من هذا. وأنا أقر وأعترف أن المرتب قليل، بل ضئيل، إذا قيس إلى الجهد المضنى الذى

تبذلينه، وإنها لمروءة منك أن ترضى به، وستتسع أعمالنا وتعظم بفضلك؛ فيتسنى حينئذ، أن نجزيك التجزية العادلة».

فقاطعته، ضاحكة: «أنا أقول إنه كثير؛ فتعتذر لى من قلّته كأنى كنت...».

فقال: «آه! اختلاف رأى.. فلنبق مختلفين إذا شئت، فإن رقى العالم لا يتيسر، إذا كان الناس كالنسخ العديدة من صحيفة أو كتاب، فخلك على رأيك فى الاستكثار، وسأبقى على رأيى فى الاستقلال، وكلما لاحت فرصة تجادلنا.. ومن يدرى لعلنا نتفق آخر الأمر... وربما..».

فلم تجد فائدة من الكلام.

وكانت إذا خلت بنفسها تتساءل عن شعورها نحوه، أهو حب؟ وتهز رأسها، وتقول إنها تستظرفه جداً، وتعده صديقًا حميمًا، وتحله من نفسها محلاً لا ينازعه فيه منازع، وتشكر له حسن صنيعه معها، ولا تجحد فضله، بل نعمته عليها، ولكن لا تنطوى له على ذلك الحب الذى يلقى بالمرأة على الرجل ويستغرقها ويأخذ عليها كل متوجه.

استغربت، وهى تدير عينها فى قلبها، أن تجد للأستاذ حليم علوقا ونوطة بقلبها لا تشبهها ولا تدانيها مودتها لنسيم؛ فإن نسيم أقرب إلى الأخ أو الخدن. أما حليم، فإنها تشعر له بحنة خفيفة، نعم، ولكنها حنة، تورث قلبها خفقة؛ وقد سايرت حليما

وانقادت له، ولكنها لا تشعر أنها يمكن أن تنقاد على هذا النحو لنسيم، وإن كانت غارقة فى نعمته.

وكانت لها جارة فى مثل سنها، رأتها تمشى عصر يوم فى الحديقة الواسعة المهملة؛ فأقبلت عليها تحادثها، كما تفعل أحيانًا.

وكانت الجارة قد راقبت محاسن بعد أن لفت نظرها أنها صارت أنفس ثيابا وأكثر احتفالاً بزينتها، فما لبثت أن استطردت إلى ما جاءت من أجله وقالت: «هذا يوم جميل لا ينقصه إلا . . .».

وأمسكت وحدقت فى وجه محاسن؛ فقالت هذه: «إلا ماذا؟!».

قالت الجارة: «إلا الحبيب».

فأدهشت محاسن هذه الصراحة، ولم تزد على أن زامت.

فضحكت الجارة: «أيدهشك قولى يا محاسن؟! ربما، ولكن ألا تتمنين، عندما تنقشع السحب، وتصفو السماء وتسطع الشمس، وتحمى الأبدان أن يقبل عليك حبيبك؛ والحب يطل من عينيه، وذراعاه مفتوحتان وشفتاه متهيئتان للتقبيل والهمس الحلو؟!».

فاضطرم وجه محاسن، فما خاطبها أحد ـ رجل أو امرأة ـ بمثل هذا الكلام الصريح من قبل.

وقالت الجارة: «ليس فى هذا المنى شىء منكر، فإنها طبيعة،

وإذا لم يشعر الشاب والفتاة بهذه الحاجة؛ فلن يكون زواج. وإذا امتنع الزواج انقطع النسل وخربت الأرض».

فقالت محاسن محتجة: «أى كلام هذا؟!».

قالت الجارة: «ماله؟! إن الحب طبيعى، وقد خلقنا له، فلماذا تخجلين منه؟!».

فلم تجب محاسن، فألحت عليها جارتها وسألتها: «هل تزعمين أنك لم تفكرى قط، فى الحب، أو لم تحلمى بحبيب؟!».

قالت محاسن: «ربما... أحيانا... ولكن...».

قالت: «إذن، لماذا كل هذا التكلف؟!».

قالت محاسن: «ليس هذا تكلفا، ولكن الكلام... عيب»

قالت «عيب؟! كلا، إن الحب ـ الحقيقى ـ شىء مقدس لا عيب فيه، وإلا فلماذا يتزوج الناس؟!».

فسكتت محاسن، وخطر لها أن لعل فريدة جارتها الجريئة أعلم منها وأفهم وأدرى. وقد تستطيع أن تفتح لها عينيها، وتخرجها من حيرتها، فسألتها:

«قولى لى يا فريدة، كيف تتصورين الحبيب الذى تتمنين؟»

قالت فريدة: «الحبيب الذى أتمنى، ما أكثر ما رأيته بعين خيالى: طويل.. نحيل.. جميل الشعر ناعمه، أسود العينين، خفيف الدم، بسام، مليح الفكاهة، يعيش من يوم إلى يوم، ولا

يصدع رأسه بالتفكير فى الغد، ويداه طويلتان صغيرتان رقيقتان، ووجهه شاحب قليلا، ولكنه غير متهضم أو دميم، وحديثه يحركه الخيال».

فقالت محاسن، قبل أن تسطيع كبح لسانها: «كلا.. إنه لا يشبه ما أتخيل؛ فالرجل الذى أراه فى أحلامى ـ أحلام اليقظة ـ : طويل عريض الكتفين، متين البنيان، أسمر اللون، حسن الصورة، وذقنه فيها نقرة صغيرة، وهو مرهوب، ولكنه رقيق القلب عطوف على الضعفاء، ولا يهاب شيئًا، وهو مرح، يقهقه حين يضحك، ولكن فى صوته نبرة حزن؛ لأنه قاسى فى حياته شدائد وذاق آلامًا».

وأمسكت فجأة؛ فقد كانت كأنها تتكلم وهى نائمة.

فقالت فريدة: «أنا لا أرضى عن حبيبى هذا إلا إذا كان حسن الهندام؛ فإنى أكره الرجل الذى يهمل مظهره، ويترك شعره يطول أو لحيته تنبت، ولا يكوى ملابسه، وعندى أن الرجل ينبغى أن يعنى بثيابه كالمرأة...».

فقالت محاسن: «حسبنا أحلاما»!

ولما قابلت نسيم فى ليلتها؛ خجلت؛ فما كان فيه شىء من صفة الحبيب الذى تتخيله وتحلم به!

الفصل الرَّابع

(١)

ألحت على محاسن صورة الحبيب المتخيل، بعد حديثها مع جارتها. وكانت قبل ذلك سابحة على متن التيار، وهى فى شاغل من شئون البيت، ومشقة التدبير، والسخط على أبيها، واستهجان سيرته مع صاحبته، وإشفاقها على أمها، وما جرت عليها علاقتها بالأستاذ حليم، وما احتاجت إليه من كسب الرزق بعرق الجبين. وكان مما ساعدها على الانصراف عن التخيل أنها وطنت نفسها على الرضى بالعزوبة والسكون إليها بعد تلك التجربة الأليمة التى جرها عليها سوء حظها. وكانت تعود كل ليلة إلى بيتها مهدودة القوى، وإن كان عملها فى الشركة هينًا؛ لأنها لم تألف العمل، ومواعيده المنتظمة التى لا تختلف فى صباح أومساء. فكانت تضطرب إذا فاتها ترام. وتشفق أن تتأخر ولو دقيقة واحدة، فمشيها أشبه بالهرولة، وأعصابها لا تهدأ، وقلبها لا يكف عن الخفقان، فكانت إذا انقضى اليوم بسلام، وبلغت بيتها؛ تتشهد ولا تكاد تنطرح على الفراش حتى يأخذها النوم، فإذا حلمت؛ لم تر إلا المدير المرهوب أو الوالد الأخرق، وإلا صورا لا تطيب، من البأساء والضراء.

وجاء نسيم؛ فطاب به العيش، ولكن الزواج ظل لا يجرى لها فى خاطر لما وقر فى نفسها، حتى فتح لها الأستاذ حليم عينها، ونشر المطوى من الأمل وعرفها أن ما كانت تظنه مستحيلا، قريب المنال، وإنه ما من معضل إلا وله حل ما، فتهيأت نفسها تهيؤا جديدا، وعادت الأرض التى أصارها الإهمال والترك مواتا وجمادا كنودا ـ حرة جيدة التربة مرجوة الريع. ثم كان حديث الجارة فريدة، وقد تلقته أول الأمر بالامتعاض مما ينطوى عليه من تطلع، ثم ما لبث على قصره أن أيقظ خيالها الذى كان قد بدأ يتقلب ويتنبه، فطافت برأسها فجأة، تلك الصورة لما كانت ـ فى قرارة نفسها وإطواء ضميرها المحجوب عن ناظرها أو إدراكها بما هى فيه من الهم والكرب ـ تشتهى أن يكون عليه الحبيب.

وكانت ـ بعد ذلك ـ فى غدوها ورواحها مع نسيم، لا تزال تنقل عينها منه وتديرها فى قلبها، وتقيس الحقيقة الإنسانية الماثلة أمامها فى صورة حية من اللحم والدم إلى الصورة التى كانت مكنونة تتجسد، وألوانها تتبين، وسماتها تنجلى. وكثر على الأيام تأملها وطالت إجالة العين فيها حتى صار يخيل إليها أنها تنظر إلى رسم بارز أو مجسم. وألفت ـ شيئًا فشيئًا ـ أن يرف لها قلبها، ويفتر لها ثغرها، وترق لها نظرة عينها وتلين، وأن تناجيها، فى خلوتها وتحاورها، وتنشىء معها أحاديث تفيض عذوبة وحلاوة، وتتخيل لقاءها مع صاحبها فى الحقيقة على أشكال شتى، وفى أماكن عدة، وفى ضروب من الثياب متعددة الألوان، متفاوتة الوشى والتفصيل، مختلفة النسيج، وكانت ربما

فتنتها هذه الصور التى تتعاقب على عينها، وهى مع نسيم؛ فتشرد نظرتها وتشخص وقد ثبت حملاقها، فتبدو له كأنما قد نأت عنه وهى إلى جانبه، وغابت وهى قيد لحظه؛ فيتعجب، ويحمل هذا منها على محمل الرضى، بما هى فيه، ويؤوله أحيانًا بأنه هو سهوم الحب، ويتساءل: حب من يا ترى؟!حبه هو؟! أم حب سواه؟! ومن يكون سواه هذا وما يعرف أنها تلتقى بغيره ولا عهد منها إلا الصدق والصراحة فى إطلاعه على أحوالها وأمورها جميعًا؟!

ولكنه كان امرؤ فيه أناة، وميل إلى أخذ الأمور مأخذ التهوين؛ فكان يقول لها، مفاكهًا على عادته:

«م. . يظهر أن مستشارتنا تعبت، وبرح بها فرط اجتهادها لنا. . أما والله، إن آل نسيم لأنانيون. . كيف يتركون مستشارتهم المخلصة ترهق نفسها هذا الإرهاق. . كلا. . هذا لا يجوز فيجب يا آل نسيم أن تعطوها قسطًا من الراحة، وإنى بلسانهم ـ أو ألسنتهم جميعًا ـ أسألك: «ما قولك فى إجازة. . إجازة لا تطول؛ حتى لا تعطل الأعمال، ولا تقصر؛ فيقل بها الانتفاع؟»».

فتفيق، وترتد إليه، وتبتسم له، وتسأله «ماذا كنت تقول؟ معذرة فقد كنت كأنى فى عالم آخر»!

فيقول: «تا الله، ما أذكاك يا نسيم وأحد فؤادك! ولا عجب، فإن آل نسيم كلهم لوذعيون. . أى نعم يا صديقتى المستشارة، فإن الذى كنت أقوله ـ وفاتتك البراعة فيه لسوء حظك ـ ليس إلا شاهدا واحدا من آلاف من الشواهد، على هذه اللوذعية التى شاعت فى آل نسيم علوا وسفلا كالوباء، وتمثلت خاصة فى

المتشرف بخطابك. كنت أقول ـ ولا بأس من أن أعيد، فإن أمثال هذه البراعات تحلو على التكرار ـ أن بك حاجة إلى أن تجدى نفسك فى عالم آخر، كما قلت تمامًا، وبعبارة أخرى، يجب أن نتعطف؛ فنمنحك إجازة من هذه الواجبات التى تضنيك، تعودين بعدها أنضر وأنشط وأقدر على الاضطلاع بأعبائك الجسام، فما قولك؟».

قالت وهى تضحك: «إجازة؟! من قال إنى محتاجة إلى إجازة؟! ومن أى شىء وأنا فى إجازة دائمة»؟!

قال: «شكراً لك على هذا اللطف، فإنه دليل الإخلاص فى العمل، ولكن فراستنا الصادقة، تقول لنا غير ذلك ومن أجل هذا قررنا أن نمنحك إجازة بمرتب مضاعف، أو غير محدود، للاستجمام والراحة من عناء الأعمال، وقد وقع اختيارنا لك على الإسكندرية، تعرفينها؟! سمعت بها؟!».

قالت، وهى لا تزال تضحك: «ما رأيتها قط»!

قال: «هى ثغر صغير.. صغير جدا.. ولكنه على صغره؛ يقف سداً منيعًا فى وجه البحر، فلا يزال البحر يكر عليه بأمواج كالجبال، ولا يزال هذا الثغر الصغير الباسل، يدفعها ويرده ويترك لججه المتعاقبة متكسرة على صخورها، والمعركة لا تنتهى، ولا تفتر فى ليل أو نهار، ولكن الثقة وطيدة بهذا الثغر الباسل، وبقدرته على صد كل كرة، وتمزيق كل حملة، فما قولك فى أن تقلدى المراسلين الحربيين، وتذهبى إلى هذه الساحة الأبدية لتوافينا بأحدث أنباء هذا النضال؟!».

فسألته: «هل مللتنى؟!»

قال: «إنها المرأة لا تكون أبدا إلا كما خلقها الله، لا كما يريد نسيم أن تكون. على أن هذا لا يسوءنا؛ لأنا ندرك بفطرتنا الذكية أن المرأة المخلصة لطبيعتها هى التى تستحق أن يعنى بها الرجل؛ ولهذا نعنى بك؛ لأنا نراك مخلصة لأنثويتك. كلا، لم نملك يا مستشارتنا العزيزة، وإنما نؤثر لك الراحة، أو نرجو أن تعودى إلينا من معركة ساحل بحر الروم وأنت أشوق إلى مجلسنا الظريف، وأطلب لحديثنا اللذيذ، وأحرص على الاستماع إلى آرائنا النفيسة، وأنشط فى أداء واجباتك الكثيرة الأخرى».

فأطرقت شيئًا، ثم رفعت رأسها ونظرت إليه جادة، وقالت: «ألا تمهلنى؟».

قال: «لماذا؟! القطار حاضر، والإسكندرية تنتظر مقدمك السعيد بلهفة».

قالت: «لكأنى بك تريد أن تحملنى الساعة، وتضعنى فى القطار وتدفعه بيديك.. ما الداعى إلى العجلة؟!».

قال: «لا داعى سوى أنى أخشى على الوردة الذبول فى هذا الجو الثقيل».

وكانت هذه أول عبارة جرى بها لسانه مما يشبه أن يكون إعرابا عن إعجاب، أو يقرب أن يكون غزلا. وكانت هى تحمد الله على اتقائه أن يقول شيئًا يجرى هذا المجرى؛ فقد كانت تخشى أن تضطر إلى تخييب أمله، وحينئذ يكون ماذا؟ بأى لسان تقول «لا»

وهو رب نعمتها؟! وكيف تطيق أن يظن بها الجحود، وهى غير جاحدة؟! وإنها لتعلم ـ على الأقل منذ نبهها الأستاذ حليم ـ أن هذا حال لا يمكن أن يدوم، وإنه لا معدى عن الانتقال إلى حال أخرى. وها هو ذا، قد أجرى لسانه بأول كلمة تشير إلى قرب الانتقال ووشك التحول، أفلا يحسن أن تغتنم الفرصة التى أتاحها لها، وتفر إلى الإسكندرية وتقضى فيها أيامًا توسع فيها هذا الأمر تفكيرًا وتدبرًا؟!

ولقد تلطف، فأشار إلى أنه سيدعها وحدها، ويتخلف هو فى القاهرة ففى مقدورها وهى بعيدة عنه، أن تنظر فى أمره وأمرها معه، وأن تتأمل ما تحسه له وهى نائية عنه، وأن تشاور نفسها فيما عدا ذلك أيضا، فى مستقبلها معه، أوبمعزل عنه، إذا استقر رأيها على التأبى والنفور، وفيما ينبغى أن تحدثه، أو لا تحدثه به إذا آثرت الرضى بما يخطو إليه ببطء وعلى حذر.

دار هذا كله بنفسها فى مثل لمح البصر. فقالت له: «إذا كنت تبغى جادًا أن أسافر؛ فأنا أفعل ماتأمر، وإن كنت لا أشعر أن بى حاجة إلى ذلك، ولا أعرف لماذا تبغيه.. على كل حال.. أمرك.. وماذا أقول غير ذلك؟!»

وكان نسيم قد تخير لها مكانًا خاليًا فى القطار، ولبث معها حتى دق الجرس إيذانًا بالرحيل، ثم وقف على الرصيف يودعها ضاحكا.

ولم تجد محاسن مشقة فى إقناع أمها بأنها ندبت لعمل فى الإسكندرية. أما أبوها، فلم تكن بها حاج إلى استئذانه وإن كانت

فى سريرتها تخشاه. ولكنه كان يبيت فى حيث لا يعلم أحد، ويغيب يومًا أو يومين أو أيامًا، ثم يئوب على غير انتظار، ويكتفى بأن يقول إنه كان فى مهمة، ولا يسأل عن شىء أو أحد، كأنما يتقى أن يسأل هو أيضًا، إذا فتح هذا الباب.

ولبثت محاسن وحدها دقائق، فتناولت قصة بوليسية وهمت بالقراءة؛ وإذا برجل يدخل ويضع حقيبة ضخمة على الرف، وينحط على المقعد أمامها؛ فثقل عليها أن يتطفل على وحدتها غريب، ورفعت رأسها، وألقت إليه نظرة استهجان؛ لتطفله واستثقال وجوده، وما كادت تصعد طرفها إليها حتى دهشت وشخصت، فقد كان الرجل تمثالا حيا لمن قالت لجارتها فريدة إنها تحلم به: طويلا، أسمر اللون، ملوحًا، عريض الكتفين، أرسخ، حاد العين كالصياد، قوى الفم، بارز الذقن متينها.

أخذت عينها هذا كله فى أسرع من رد الطرف، لولا أنها لم ترد طرفها؛ لفرط دهشتها، فظلت عينها عليه، والراجح أن محياها فضحها، ونمَّ على ما خالجها من العجب والسرور؛ فقد خلع الطفيلى طربوشه وحسر على رأسه، وكان قصير الشعر، منتصف المشيب.

«معذرة.. هل بيننا معرفة؟!».

فهزت محاسن رأسها أن لا، ووجهها كالجمرة.

وهمت ـ لما سألها هل بينهما معرفة ـ أن تقول: «نعم. فإنك أنت بطولك وعرضك، الذى أراك بعين خيالى حين أحلم

بالرجل الذى أشتهى أن يكون بعلى»، ولكنها عضت على لسانها ولم تنبس ببنت شفة، وهزت رأسها منكرة أن تكون ثم معرفة، وصبغ وجهها الحياء؛ فزاده وضاءة.

وأمسك الرجل واضطجع، ومضت ثوان أو دقائق أو حقب، وإذا بها تقول له:

«أحسب أنك تقول فى سرك إنى جريئة، أوسيئة الأدب، ولك العذر، ولكن الحقيقة أنك توءم رجل أعرفه ـ نعرفه ـ من زمان طويل».

ولو طاوعت نفسها لقالت له إنها لم تعرف هذا الرجل المزعوم إلا فى أحلامها.

فتبسم الرجل ـ الحقيقى ـ وقال: «صحيح؟! واثقة أنى لست هو؟! اسمى حمدى، حمدى الدينارى».

فاتقد محياها مرة أخرى، وهزت رأسها ثانية، ولكن لسانها لم يخذلها، فقالت:

«واثقة، ولكن اسمك أيضا، يخيل إلى أنه مألوف، لا أدرى لماذا؟!».

فقال: «كلا.. لا أظن أننا التقينا من قبل، فما كنت لأنسى هذا الوجه، لو كنت رأيته»!

فعاد الدم القانى؛ فتدفق إلى وجنتيها.

وآنست منه رغبة فى الحديث، فلم تصده، فقالا فى الجو، ثم

فيما يمران به خطفا من الحقول، وعلمت من كلامه ولهجته أنه يؤثر الريف على المدن، وخيل إليها أن بينهما اتفاقًا فى الذوق والميول.

وقالت لنفسها لما دنا القطار من (بنها): «هنا سينزل، ولن أراه بعدها أبدا»! وكان هو يسأل نفسه: «أترى يليق أو يحسن أن أسألها عن عنوانها قبل أن تنزل فى بنها، وينتسخ الحلم إلى الأبد؟!».

ولكن بنها جاءت ومضت، وهما جالسان يتحدثان، وقد تنفس كل منهما الصعداء، أو تشهد.. فى سره.

وأشرفا على (طنطا)، فأيقن كلاهما أن صاحبه مفارقه فيها، ونفد صبرها قبل صبره، فأخبرته ـ لتستدرجه ـ أنها ذاهبة إلى الإسكندرية، وأنها ستقضى فيها بضعة أيام، وأن أحد معارفها دلها على نزل حسن فى (الرمل) على ساحل البحر ـ فى جليم ـ فأشرق وجهه والتمعت عيناه وقال إنه هو أيضًا، ذاهب إلى الإسكندرية، ولكنه سيكون فيها ضيفًا على صديق له.. ونزلا فى محطة سيدى جابر، وقال لها وهما يخرجان:

«هذه السيارة العتيقة لصديقى، فهل تأذنين لى فى إبلاغك، حيث تريدين؟!».

قالت «هذا لطف منك، فشكرًا»

وكانت تود لو استطاعت أن تظهر التردد، أو أن تقول له: إنها لا تحب أن تكلفه عناء، أو تؤخره، ولكنها أحست أنه لا محل لهذا التكلف معه.

ولما بلغا المنزل الذى اختاره نسيم لها؛ وقف معها على بابه هنيهة، ويدها فى يده، وسألها: «هل لى أن أطمع فى لقائك مرة أخرى؟!».

قالت: «لم لا؟!». إذا شئت... إنى هنا وحدى ولست أعرف أحدا».

قال: «أشكرك. فما رأيك فى أن نقضى النهار غدًا فى أبى قير؟».

قالت: «أنت أدرى بهذا البلد، فاختر ما يحلو لك».

قال: «حسن، وسأمر بك فى منتصف الساعة العاشرة، يوافقك هذا؟».

وهكذا دخلت محاسن هذا المنزل، وقلبها يغنى ويرقص، والسرور يلفها فى شملة وردية.

ومر الأسبوع يخطف كأنه ساعة، وكانت تكتب إلى نسيم، تصف له بهجتها واغتباطها بمقامها، فجاءها منه كتاب ينبئها أنه ذاهب إلى بلدته، وأن فى وسعها أن تقضى أسبوعًا آخر؛ فأحست أنها وهبت أسبوعا ثانيا من حياة الفراديس.

وارتفعت المعرفة إلى مرتبة الصداقة، وتحولت الصداقة بسرعة إلى ما هو أدق وأعمق، ولا عجب إذا ذكرنا أن هذا كان رجل أحلامها وأنها كانت كأنها تعرفه طول حياتها.

وكانت محاسن ربما قلقت أحيانا؛ فجفاها الرقاد، فقد كانت

تحبه حبًا مستغرقًا، وتعرف أنه يعرف ذلك، ولا يخفى عليها أنه يبادلها حبًا بحب، كأنما كانت تشعر بالتيار النفسى الذى يجرى بينهما حتى يلتقيان، أو تلمس يده أو تنظر عينه فى عينيها، ولكنه كان لا ينطق، ولا يفصح. وكان يبدو أحيانًا، ساهمًا واجمًا شارد اللب، كأنما يطوى أضلاعه على هم، فكانت تتعجب وتقلب الفكر؛ فلا تهتدى، حتى كان يوم قصدا فيه إلى موضوع صخرى قصى على ساحل البحر، فمد يده إليها؛ ليعينها على الانتقال من صخرة إلى صخرة، فأهملتها، وصعدت فوق صخرة كبيرة أشرفت منها عليه، وكانت الشمس على محياها الصابح، والهواء يعبث بخصل شعرها ويردها عن جبينها الواضح؛ فراعه حسنها، وقال:

«إنك هكذا، أجمل من ملكة على عرشها».

فأطلقتها ضحكة فضية وصوبت إليه عينها فزلت قدمها؛ فصرخت وارتمت بين ذراعيه، فأحاطها بهما؛ وطوقت هى عنقه، ولبثا هكذا هنيهة أو دهرا فيما يحسان، ثم إذا بالشفاه تلتقى ـ عفوا ـ فى قبلة طويلة، ثم تحاجزا قليلا، نظر كل منهما إلى صاحبه.

قال: «كنت أحس أن هذا سيكون، لامحالة».

قالت: «وأنا أيضا، والحمد لله»!

فما راعها إلا أن أقصاها عنه بلطف وقال: «لا تقولى هذا، تريثى حتى تعرفى... فإن هناك أشياء يجب أن تعرفيها أولا».

وتناول ذراعها مترفقا بها، ومضى بها إلى السيارة التى تركاها

على الطريق فدخلا فيها، وقلبها يعصره الأسى، ووجهه ناطق بالألم المر.

وانطلق بالسيارة ينهب الأرض، ولا يبالى أين يذهب، وهى إلى جانبه لا ترى شيئًا مما حولها أو أمامها، حتى خرجا إلى الطريق الذى ينثنى إلى الريف؛ فوقف.

وقال لها: «قلت لك إن هناك أشياء يجب أن تعرفيها قبل . . .».

قالت «يكفينى ما أعرف وتعرف، وما عدا ذلك، لا قيمة له عندى وليس يعنينى أن أطلع عليه».

قال: «كلا، وستعرفين أنى على صواب بعد أن تسمعى ما سأقصه عليك».

وسكت برهة، وأرسل عينه أمامه، وبدا كأنه يعالج أن يجمع متفرقا. أو يختصر مطولا، ثم التفت إليها، وأراح أنامله على راحتها، وقال:

«كان ينبغى أن أقول لك هذا من قبل، ولكنى لم أكن أظن أن الأمر يبلغ بك هذا، وقد نظرت إليك فى القطار فأحببتك، ولكن لم يدر لى فى خلد أن تحبنى فتاة رائعة مثلك. ولقد فاجأنى حبك فأحسست لحظة أنى ميت بعث من قبره، غير أنى ما لبثت أن عدت إلى قبرى ـ لفت الحقائق المرة كفنى على مرة أخرى، وردتنى إلى التراب والظلمة ـ لا تقاطعى؛ فإنك لا تعلمين، أى نعم؛ فإنى رجل، ولا كالرجال، رجل باع نفسه. . تتعجبين، لا

أعنى أنى بعت نفسى للشيطان، وإنما أعنى أن امرأة تزوجتنى، هى التى تزوجتنى لا أنا . . وأحسب أنى أدير لك رأسك بهذا الكلام الغامض؛ فيحسن أن أقص عليك القصة : أنا رجل فلاح متوسط الحال، أملك بضعة فدادين، ليس معولى عليها، فإنها قليلة وغلتها ضئيلة. وكان فى وسعى إصلاحها، فيكثر ريعها. وكان من الميسور أن أستأجر غيرها من الأرض الجيدة، وأعمل فى هذه وتلك؛ فأعيش فى رفاهة، ولكنى آثرت الأسهل، فعملت فى ضيعة كبيرة لرجل من السادات، وقف أرضه على بنته دون زوجته، وإن كانت سيدة يضن الزمان بمثلها، ومات الرجل؛ فصار الأمر كله إلى؛ فأنا المشرف على الزراعة، ولكنى لم أخن الأمانة، فبقى مالى الذى أعيش منه هو أجرى والقليل الذى تغله أرضى. وكبرت الفتاة وصارت من الحوريات الرعابيب، وأنا أزداد كل يوم تعلقا بها ووفاء لها . . . وقدمت يوما موقومة . . لا لا لا . . ينبغى أن أوجز؛ مخافة أن تظنى أنى أحملها التبعة وأبرئ نفسى من الضعف والطمع. ولهذا أقول بإيجاز : إنها تزوجتنى . . أى نعم . . قالت لى كن زوجى، فكنت. وقالت إنها ستحتفظ بالعصمة فى يديها، فقبلت عن طيب خاطر، فقد حسبتها تخشى على مالها، ولكن الحقيقة التى عرفتها بعد ذلك أنها لم تتزوجنى لرغبة فىّ، بل فراراً ممن تحبه هى . . لا تستغربى فإن لها لحكاية. وحكايتها : أنها أحبت فتى وأحبها أيضًا، وهو جدير بها وإن كان لا مال له، فقد رأيته وعرفته، ولكن قومه فيهم إباء، فهم يستثقلون أن يكون ابنهم فقيراً وامرأته ذات ثراء، ويخشون أن يشقيه ويشقيهم ذلك. وهو أيضا، شديد التحرج؛ لا

يرضى أن ترضخ له مالها؛ فألفت نفسها مقبلة على حياة لن يكون نصيبها منها إلا الشظف ـ بالقياس إلى ما تعودت ـ والمال عندها مثل التراب فى الكثرة وفى الزهد فيه. ولست ألومها؛ فما من شك فى أن إسراف صاحبها فى التعفف كان خليقًا أن يشقيها، ولكنه كان من حقى عليها، وقد اعتزمت أن تهرب منه إلى أن تفضى إلي بالحقيقة، على أنى لا أبرئ نفسى؛ فقد كان ينبغى أن أتريث وأفكر وأستجلى سر إقبالها علىّ بغتة، وأحسبنى طمعت فى رغد العيش ولينه وإن لم أطمع فى مالها.. على كل حال.. هذا ما كان.. ولست أشكو، ولكنى أقول ما أقول تقريرا للواقع، ومازلت زوجها، ولكن بالاسم، وهى تحملنى معها وتبدينى للناس هنا وهنا، وتخلطنى بأصحابها، ولكنى لا أختلط؛ لأنى لست منهم ولا هم منى. ولست فيما أعلم ضيق الصدر. وأستطيع أن أقول إنى لست فظًا ولا شكسًا، ولكن هؤلاء الذين تجرنى إلى مجالسهم، وتدور بى معهم، وتكلفنى أن أنهز معهم بدلوهم ـ أولى بهم أن يكونوا فى المحابس وعليهم القضبان؛ فإنهم لا أكثر ولا أقل ـ فيما أرى وأحس ـ من قردة. وعسى أن أكون ظالما لهم. وأعترف أنهم يكرموننى ويلاطفوننى، ويحتفظون بى ـ لا أدرى لماذا؟! لأجلها على ما أظن ـ ولكنى مللت. ولم أعد أطيقهم. وقد صارحتها بذلك. وآذنتها بالفراق. ولكن الفراق ليس معناه الطلاق؛ فإن الأمر لها وليس لى. وأحسبها ستجرى على نفقة.. (وقهقه) ألم يبق أمامى إلا البحث عن عمل آخر؛ أكسب به رزقى؟! والآن، وقد عرفت الحقيقة كلها، وتبينت أى رجل أنا، فهل لا تزالين تحمدين الله؟!».

وكـانت مـحـاسـن ـ ككل بنات حـواء ـ تسـتـيطع وتحـسن أن تتكلف . ولكنها لم تتكلف فى هذا الموقف شيئًا ، فقد غضبت ـ له ـ وتغير وجهها من الحر ، وقدحت عينها شررًا ؛ مما يحتدم فى جوفها ، وكان هذا مظهر رقة وعطف لم يعرفهما حمدى من قبل ، فلا عجب إذا كان حبه قد شب فجأة عن الطوق .

وانطوت يده على أناملها ، وانثنى رأسه ، ولثمت شفتاه كفها ، وهمس «أحسبك تعرفين أني مجنون بك؟!» .

قـالت : «أعـرف ذلك ، حـمدًا لله . . فإنى أنا أيضـا ، مجنونة بك . »!

فانتفض ، فقد كان حسبه منها ما بدا من عطفها . أما . . . وقال يزجرها «محاسن!» .

فـهزت رأسـها ، وهى شـاخصة لا تطرف ، وقالت : «صحيح صدقنى» . فطوقها ، وأراح خدها على خده ، وقال ، كأنما يحدث نفسه :

«إنى لا أكاد أصدق . وبعد أن كاشفتك بكل هذا . . . » ونحاها قليلا لينظر فى عينيها : «أما أنى أحبك ، فطبيعى ومعقول ؛ فإنك حنانة عطوف وجميلة رقيقة كالزهرة ، أنت كلك من فرعك إلى قدمك طاقة أزهار شتى . . لم أر أحدا مثلك . . ولا أظن أن لك من يماثلك أو يدانيك ، ولكن أنت . . أواثقة أن هذا حب لا عطف؟» .

قالت : «واثقة جدا . لقد أحببتك فى اللحظة التى رأيتك تدخل القطار» .

فهمس: «محاسن، محاسن»، وشد على خصرها؛ فارتد رأسها إلى الوراء: «إنى خائف يا محاسن.. فإنك نرجسة.. لماذا لا أموت الساعة؟! فقد بلغت مناى».

قالت: «آه، لو كنا نموت الساعة معا!» وتعلقت أنفاسها: «كلا. ليس حبى لك عطفا عليك متنكرا في صورة حب؛ فإنه حب. ثم إنى أحوج منك إلى العطف، وأولى به، فاسمع أنت أيضا، واعذر واصفح؛ إذا استطعت، أو أنكر وانفر، فلن ألوم أو أستغرب».

وقصت هى أيضًا قصتها، كما وقعت. ولم ترحم نفسها، ولم تحاول أن تبرئها، أو تلطف من وقعها.

ولما انتهت قالت: «والآن.. هات الحكم».

فابتسم، وقال برقة: «لم يكن هذا ذنبك يا محاسن؛ فإنك ساذجة عطوف، ومن السهل خداعك وإيقاعك فى الشرك».

قالت: «لم يكن هناك خداع ولا شرك، ولا كان ما كان شيئًا إلا أنه كان أكثر منى سذاجة، ولعله أولى منى بالعطف والرحمة.. لم يتعمد وإنما جاء كله عفوا، كما بينت لك. وما أظن الآن به... مسكين!».

قال: «ليس لهذا قيمة؛ فتناسيه كله. وليتنى أستطيع أن أنحى ماضيَّ أنا بمثل هذه السهولة، أو أراه أهون من أن أعيره فكرة. ولست أدرى الآن ماذا يجمل بى أن أصنع. فإنى أحبك حبا لا عهد لى به. ولا كان ظنى أن قلبا واحدا يتسع له ويحتمله. ولست

أطيق أن أدعك معلقة. وإنه لصعب أن نتحاب هكذا، على غير أمل . . . . ».

(٣)

وعادت محاسن إلى حجرتها فى المنزل. وراحت تتمشى من النافذة إلى الباب، وقلبها مترع حبًا وحزنًا. لقد وجدت ضالتها أخيرًا، ووجدت عنده ما كانت تحسب أنه بعيد، بل لا سبيل إليه، من الفهم والإدراك والصفح أو التجاوز، ولكن ياله من موقف . . وأى حال مقلوب؟! متزوج، ولكن امرأته هى التى يسعها أن تسرحه أو تمسكه. وإنه لمن حسن حظها ـ أى محاسن ـ أن حمدى يعد ما كان منه زلة قبيحة وضعفا يزرى بالرجولة. ولعل هذا هو الذى وسع صدره لها؛ فغفر زلتها. ولكن انتظارها سيطول ولا ريب، ولكن لماذا؟! ما خير أن تمسكه امرأته هذه، وهى لا تعاشره معاشرة المرأة لبعلها؟! ولم تستطع ـ على فرط ما أجهدت ـ أن تهتدى إلى تعليل هذا، فنفضت يدها منه يائسة وراحت تتساءل عما عسى أن تقول لنسيم؟! نسيم الذى سخا بماله، وتعهدها وبرها وسرها؟! ولا شك أنه يتطلع إلى اليوم الذى يأنس فيه ميلاً منها إليه فيخاطبها. . تاالله ما أكرمه، فهل يسعها أن تعاجله بهذا الخبر الجديد؟! أو ترى يحسن بأن تتريث؟ وما الداعى إلى العجلة؟! أليست ستنتظر الفرج المأمول؟ فلتنتظر إذن، وإذا احتاجت إلى البث والقول بشجوها، فإن هناك الأستاذ حليم. وابتسمت، وقد طاف برأسها أنه سيسره أنها صارحت حمدى

ولقيت منه عطفا وفهما وتسامحا؛ فما كان ينهاها عن مصارحة نسيم إلا شافقًا عليها، ولكن الكتمان عن نسيم قد يعقد الأمور، ويخلق لها معضلات جديدة بها عنها غنى، فالأوفق والأصوب والأكرم أيضا أن تخبره بما كان. وعلى الله الاتكال.

وآن أن تعود إلى القاهرة؛ فقد تلقت رسالة من نسيم، يقول فيها بأسلوبه المعهود: إنه أعد «مشروعًا»، أمر بأن يفرش رصيف المحطة بالسجاد العجمى النفيس، والطريق رملا أصفر ضاربا إلى الحمرة، وأن تصطف فرق الموسيقى فى الميادين، لتحيتها والترحيب بها. فكان لابد أن تكتب إليه تنبئه بموعد إيابها، فترددت واشتهت أن تقضى أيامًا أُخرى مع حمدى؛ تنعم فى خلالها بحبه، فهل تطاوع نفسها وتبقى، أوتعجل بالرحيل؟

وأرجأت الرد إلى المساء، حتى تشاور نفسها. وكانت على موعد مع حمدى فى «سيدى بشر»؛ فقد كرهت أن يمر بها كل يوم فى المنزل فيلاحظ النزلاء ذلك ويلغط ذوو الألسنة الطويلة منهم. ولم تكن تجعل بالها إلى هذا أو تخشى القال والقيل، أو تتقى أن يخوضوا فيهما قبل أن يتصارحا، ولكنها بعد ذلك صارت تحس أن كل عين عليها، وكل أصبع ممدود يومئ إليها، وكل همس يجرى يقول فيها لا حسن ولا قاصد.

وبارحت الترام فى محطة قريبة من سيدى بشر، ومضت إلى حيث تقف السيارات التى تقل الركاب إلى الشاطئ. ووجدت مقعدًا خاليًا إلى جانب النافذة. وصعد السائق إلى مقعد القيادة وتهيأ للسير. وانطلقت الصفارة؛ فمضت السيارة تخطف فى

طريقها، وإذا بمحاسن تبصر رجلا وامرأة على الرصيف: فأما الرجل، فعرفته من ظهره؛ فما كان غير أبيها. وأما المرأة، فما خالج محاسن شك فى أنها صاحبته الأجنبية التى أنسته زوجته وابنته وأذهلته عن حقوقهما عليه، وأكلت أكثر ماله، ونازعتها نفسها أن تتوضح هذه المرأة وتحد النظر إليها، وأشفقت أن يراها أبوها، فآثرت التحرز؛ فحجبت جانب وجهها بكفها، وهى تدير رأسها، وغضت شيئًا من بصرها مع إدامته والاستثبات فيه. وكانت النظرة سريعة قصيرة، كان لا بد أن تكون، ولكنها أرتها ما فيه الكفاية: فأما أبوها، فكان على خلاف العهد به فى البيت؛ مشرق الديباجة بشوشًا حفيًا بصاحبته. وأما المرأة، فلم يسع محاسن إلا أن تعترف أنها خود رقراقة حسنة دوائر الوجه. واقتضاها الإنصاف أن تقر لها بالحسن، ولأبيها بحسن الذوق. غير أن إقرارها بهذا؛ جعل موجدتها أشد، وحقدها أعظم تلهبا، وحدة غيظها أعنف. وحدثت نفسها أن هذا هو الرجل الذى لا ينفك يزعق ويصيح ويزعم أنه يؤدبنا ويقيمنا على طريق الهدى والفضيلة، ويحمينا أن نضل ونغوى! وتجىء امرأة - حسانة، نعم، ولكن من يدرى أى امرأة هى؟! - فتظهر له الود؛ فتنتزعه من أصل بيته، وتذهب به أنَّى شاءت؛ فلا يبالى ما صنع أوترك. وإذا ركبت أنا أمرا على غير هداية، بالغا ما بلغ من التفه؛ قامت القيامة.. فأين العدل هنا؟! وأى قدوة هذه؟ وكانت تستولى عليها الحجة إذا واجهها بغلطة هينة، فالآن ماذا تراه يصنع، إذا تركت السيارة وأقبلت عليه وقالت له: «آه يا بابا؟! ماذا جاء بك إلى الإسكندرية، وكان الظن بك أنك فى مهمة كما تقول كلما

غبت وعدت؟! ومن هذه السيدة الجميلة التى تتأبط ذراعها وتضحك إليها؟ ألا تعرفنى بها عسى أن أستفيد خلقا حسنا فوق ما استفدت من حسن تأديبك باللسان والقدوة الصالحة؟!» وماذا تراه يقول، إذا ابتسمت له وقالت: إن بى حاجة إلى شىء من المال أنفق منه كما ينفق، أيضن أم يسخو؟ أيكون هذا ابتزازا؟ أيسخط ويلعن فى سره ويدعو الله أن يقبضنى إليه وهو يمد يده بما أعطى مضطرا؟ أم تهش لابنته نفسه وترتاح إلى البذل كما ترتاح إذ يخرج عما معه لهذه المرأة التى لا تدع لنا إلا الرقعة من العيش؟ وهبه رآنى مع حمدى على شاطىء البحر نتمشى ونتناجى بحبنا، كما يتمشيان ويتناجيان، فماذا تراه يجرؤ أن يقول لى، وما أفعل إلا ما يفعل، ولا أحتذى الا مثاله بل هو يركب بكهولته التى كان حقها أن تكون رزانا حافظة لمروءتها تاركة للقبيح والحرام ـ ما لا أركب أنا بشبابى على فرط ما يهم بأن يجمح بى؟ ولو انقدت لشبابى لكان لى عذر منه ومن غرارته، فما ذقت من نعيم الحياة شيئا إلا تخيلا، على حين امتلأ هو وكان حريا أن لا يشتهى فريدا أو يتصدى له، فإذا به لا يزال مسعوراً حريصا على اللذة. يسيم سرح اللهو حيث يتاح، ولا ينفك كالمنهوم الذى ينتصب قاعدا كلما اكتظ؛ ليوسع مكانا فى بطنه لقدر جديد!».

وبلغت سيدى بشر، وهذه الخواطر الثقيلة تدور فى نفسها، فألفت حمدى فى مدخل تلك الرقعة من الشاطئ ينتظرها ويتلفت، فلما رآها أقبل عليها يعدو، ولم يفته تغير وجهها وإشفاؤها على البكاء؛ فسألها، مالها؟! ماذا جرى؟! قالت: «لا

شيء. . ولكنى لا أستطيع أن أبقى هنا، فامض بى إلى أبعد موضع تعرفه. . أبعد موضع والسلام».

وكان حكيما فلم يقل شيئًا، ولم يسألها عن شيء، ومرت سيارة فارغة فأشار إليها وأمر سائقها أن يمضى بهما إلى محطة فكتوريا، وهناك انتظرا إحدى السيارات التى تغدو وتروح بين الإسكندرية، وأبى قير، استقلاها إلى تلك الضاحية.

وكان كلاهما صامتًا: هى تدير فى نفسهاما أثارته رؤية أبيها مع صاحبته، وإن كان لا جديد عليها إلا الرؤية؛ فقد كانت تعرف سره ولا تجهله، ولكن العيان غير السماع، وهو يتساءل فيما بينه وبين نفسه عما اعتراها من الغم والزهق، ما علته؟! وعن رغبتها فى الذهاب إلى أقصى مكان، ما داعيه؟! أهى تفر من شيء؟! ولكن هذا وجوم الحزين لا امتقاع الخائف، ولم ير من اللائق أن يستفسر وهما فى السيارة بين الناس، فهل ترى يليق أو يكون من الحكمة أن يسألها عما بها بعد خروجها من السيارة وافتراقهما عن الناس؟ وكان رجلا طويل السكوت، وقد ألف أن يلم من الأخبار بطرف بعد طرف دون سؤال، وأن يحفظ السر ويتقى أن يبدو أنه ينقب. فكان من أجل هذا ربيئة القرية كلها، مجمع أسرارها، يحدثه كل امرئ بما عنده ولا يحدث هو بشيء، وينظر لغيره فى أمره، ولا ينظر له أحد فى أمر له.

وبلغا «أبو قير»؛ فأخذا طريقهما إلى الشاطئ، وهو غير ممهد، ومعظمه رملة يتعقد بعضًا على بعض، وتنقاد من مواضع وتغيب فيها الأرجل فى مواضع أخرى، فشغلت محاسن بالوعس وما

كان يدخل فى حذائها، عن همها الذى تجنه، حتى بلغا البحر، فألفيا هناك «كازينو» دخلاه. وجرا كرسيين إلى النافذة المطلة على الماء، وقعدا ينظران إلى البحر، ويسمعان صوته ولا يقولان.

وبعد أن شربا قهوة، قالت محاسن: «معك سيجارة؟!».

فهز رأسه. وقال: «أسف، لا أدخن. ولكن إذا شئت اشتريت لك سجاير».

قالت: «لا بأس، شكراً».

فخرج، ثم عاد بسجاير، وقال لها دون أن يقعد: «تعالى انظرى».

وتقدمها خارجًا، فنظرت إلى حيث أشار؛ فرأت بيتا من خشب ذا طبقتين على البحر وعليه رقعة كتب عليها «للإيجار».

فقالت محاسن: «يا له من موقع! إنى لأحسد من يقسم له أن يسكنه».

قال حمدى: «مادام أنه «للإيجار» فلنزعم أننا نبحث عن بيت؛ لندخل ونرى، ونقف برهة فى هذه الشرفة الرحيبة الجمية، ومن يدرى، عسى أن يأذنوا لنا فى البقاء فيها حتى نتغدى.. وما المانع؟»!

فسرت محاسن وقالت: «عسى ولعل. ولقد أجدت لى هذه الشرفة منى، فإن قضينا فيها نهارنا، فذاك حسبى من إدراكها».

فصار همُّ حمدى أن يبلغها سؤالها، ويحقق لها مناها، وسأل

صاحب الكازينو عن البيت، أهو كله «للإيجار» أم بعضه فقط؟ فأخبره الرجل أن الطبقة العليا ـ التى عليها عين محاسن ـ هى وحدها الخالية، ونادى ربة البيت وأخذ منها المفتاح وصعد قدامها، ودخلا؛ فإذا بيت فيه من الغرف والأثاث ما لا حاجة بمصطاف إلى أكثر منه.

ووقفوا فى الشرفة، فقال حمدى عن أقصر مدة لاستئجار هذا البيت؟

قال الرجل: «إنه لا مستأجر اليوم، ومن شاء أن يستأجره بضعة أيام فله ذاك».

فالتفت حمدى إلى محاسن؛ فأطرقت، وقد سبغ وجهها الحياء، وطافت برأسها صور لها إغراؤها، وأخرى تخاف وتتقى. وكان يغريها طيب المكان، وإمكان الإخلاد إلى حمدى بالثقة، ولكن الحذر لا يمنع القدر كما لم يمنعه من قبل، وإن حمدى ليحبها، ولكن هل لها أن تأتمنه؟! وفى خلوة تامة كهذه؟! أو هل تأمن نزق نفسها؟ !وإذا بدا له منها أنها قد لا تبالى التضييع، فماذا يكون رأيه فيها؟ وهبه احتج عليها بأنها ضيعت، فلا خوف من زيادة التضييع، فماذا تصنع؟

وهاجت حرقاتها على سوء حظها وعلى أبيها، هذا الرجل كأنما صاغه الله على هواها، ولكن سوء الحظ يأبى إلا أن تكون له زوجة لا يملك أن يفارقها حتى تطلقه. وأن له إذا شاء أن يتزوج، فما انقلب امرأة: بأن صار الطلاق لامرأته، ولكنه لا يقدم على ذلك حتى يقع على عمل يغنيه عن عمله فى ضيعة امرأته.

وما هو بمستحق، فإن له أن يعيش منها إذا راض نفسه على القناعة. ولكنه يتحرج أن يتزوج وهو مخف. فهل تستطيع يا ترى أن تقنعه بالاكتفاء بهذا القليل حتى يأتى الكثير؟! هذا أمل تسأل الله أن يتحقق. . ولعله إذا تحقق يفتح باب الفرج؛ فتطلقه الزوجة التى تكتفى من الزواج بوثيقة لا يدرى أحد لماذا، إلا أن يكون بها حب من فرت منه، وهل كان لا بد أن تتزوج هذا؛ لتفر من ذاك، أو أنها لخرقاء مدللة؟!

وأبوها، ما الرأى فيه؟ إنه إن يعلم أن خطيبها له زوجة أخرى؛ يأبى ويركب رأسه، ولهو أحرى أن يلج فى العناد إذا علم أن العصمة بيد الزوجة؛ فإنه متكبر متجبر ـ على أهله على الأقل ـ والرجل عنده هو الرجل، والمرأة هى المرأة، وما عدا ذلك كلام فارغ. فهل تخفى هذا وتكتمه عنه؟ لم لا؟ وما شأنه هو؟ وهل يقبل حمدى أن يغالط أباها؟ أم ترى الرأى أن تتزوجه أولا، ثم تواجه أباها بالأمر الواقع؟ فهل تؤاتيها الشجاعة يا ترى؟! نعم، تؤاتيها، وما عليها إلا أن تصكه بالحجر الذى وضعه فى يدها هذا الصباح. . وأمها المسكينة؟ تتركها تتحمل الإهمال والضنك والشكاسة وحدها؟! إن أمها صابرة أواهة، ولكن محاسن لا تقوى على تركها تكابد هذه الشقوة بلا معين، أفلا سبيل إلى تدبر يرفه عن هذه المسكينة؟! ألا يمكن أن تشاور فى أمرها حمدى؟ ولكن المشاورة تحوج إلى الكشف عن سيرة أبيها، وهذه فضيحة يجب أن تستر وتطوى، وإذا كان أبوها غير أهل للرحمة؛ فإنها هى قد تضرس بالحصرم الذى يأكله هو، وهو أبوها، كائنا ما كان

يصنع، وإنها من لحمه ودمه، وليس الدم ماء. ولقد حرصت على كتمان خبره عن أمها؛ حتى لا تزيد حرقة كبدها، ولأنه يعز عليها - ولا يهون - أن تكون هى التى تفضح أباها، ولكن هذا لا يوجب أو يسوغ أن تشقى هى، وتحرم حقها فى الحياة.

والخلاصة، أن عين حمدى فى عينها، بل فى قلبها. فماذا توحى إليه؟ ماذا يكون جواب عينها، أو قلبها، أو . . . لا تدرى. فإن الجواذب من هنا وهاهنا، تتركها متحيرة، ضالة، لا تهتدى.

ولم تجب عينها بشىء؛ لأنها خرجت من لا، ونعم، بأن دارت على عقبها، ومضت إلى حافة الشرفة، ووقفت تنظر إلى البحر.

وأقبل حمدى عليها بعد هنيهة يقول: «بعد الغذاء، أذهب وأجىء بحقيبتك وحقيبتى. . فإن هذا خير من الفنادق. . وفى البيت ثلاث غرف للنوم، ثلاثة. . فاهمة؟!».

فما راعها هى إلا أنها دارت وواجهته، ودفعت يديها فطوقت عنقه، وتعلقت به؛ فأهوى على فمها بالقبلات.

وكان صاحب الكازينو قد نزل، وصعد عينه. فرآهما متعانقين؛ فهز رأسه الذى أخذ من جبينه أكثر مما يأخذ نهار الصيف من ليله، وتمتم «شباب . . . شباب . . . إيه . . يا خسارة!».

الفصل الخامِس

(١)

لم يكن أحد يعرف عمر جبران. ولكن الذين استوطنوا «أبوقير» كانوا يستطيعون أن يخبروك أنهم جميعا جاءوا، فى أوقات شتى فألفوه هناك. كأنما كان بعض وجوه الأرض، وأنه منذ عشر سنوات، أسن من أن يعمل عملا. وقد يبالغ بعضهم فيقول: «إنه هو والبحر توءمان. ولعله هو كان أجهل الناس بسنه؛ فقد ولد قبل أن تعرف شهادات الميلاد. وكان هو إذا روى ما وقع له فى شبابه ، يرده تارة إلى عهد إسماعيل ،وتارة أخرى إلى عهد عباس الأول، وتتفاوت سنه فى الرواية الواحدة بين خمس عشرة وخمس وعشرين أو ثلاثين، وتلك مسافة من العمر لا تعين على ضبط الحساب.

غير أنه - على تخبخب جلده، وذهاب أسنانه. وضموره وانحنائه - لم تخب عينه، ولم تغرورق من الكبر. كانت بقية جلد، وكان يستطيع أن يمشى وحده مضطربًا. ولكنه ما كان يقعد أو ينهض إلا بمعونة.

وقد قضى حياته كلها فى الإسكندرية، ورملتها ولم يتعلم القراءة والكتابة، ولم يركب قط قطاراً أو تراماً أو سيارة، ولكنه على هذا، رأى ووعى مالم ير غيره ممن جابوا وركبوا البحر، فكان على فقره غنيًا.

وكانت له عين سريعة الفطنة إلى الجمال فى مظاهره جميعا، فلا عجب إذا كان غنيا، وقد ناهز المائة، إذا صح حساب الحاسبين. وفى صباح كل يوم أمام هذا العمر المديد، كان يرقب ميلاد هذا المشهد الجليل الذى يتكرر ولا يسأم على ساحل بحر الروم، ويتأمل اختضاب البحر بأشعة الشمس الطالعة، ثم زرقته السحرية عند الظهيرة، وخضرة الحقول السندسية والظلال الواضحة التى يلقيها كل ذاهب فى الهواء، وفى كل مساء كان يشهد آية الغروب ويرقب غموض أسطورتها واستسرارها.

وكان كلما ارتفعت به السن، وقعد به الكبر؛ يزداد حبا لهذه المشاهد التى لا تتغير كالإنسان، ولا ينقص جمالها أو يعدو الزمن على جدتها كما يعدو على السفائن والثياب والبنى، حتى النساء لم يعد لهن فى نظر جبران ما كان لهن من ظرف ورشاقة، وفتنة وإغراء فى شبابه!!.

وهكذا صار جبران لا يصلح لشىء، إلا أن يأخذ بيده واحد من حفدته إلى ظل شجرة عسيقة مثله، على مقربة من الساحل، ويتركه هناك على كرسى وعلى ساقيه شملة مخططة من صوف، ينظر إلى البحر الذى لا يهدأ ولا يستريح حتى يدخل الليل؛ فيرتد به، وقد فاز بالمتعة التى لا تبلى جدتها.

ولم تره محاسن أو حمدى، ولم يعرفا قط، هذا الأثر المتخلف من زمان غبر، ولكنه هو رآهما مقبلين يدلفان إلى صخور الشاطئ، ويقفان عندها ـ تحت عينه النافذة ـ وللمرة الأولى منذ سنوات طويلات المدد، هم بأن ينهض وحده؛ فقد أحس أن هذين لاينبغى أن يتطفل على حبهما إنسان، ولكن ساقيه خذلتاه؛ فبقى حيث هو، لا يريم مكانه ولا يتحرك غير إنسان عينه كأنه أصل شجرة عادية لم يبق منها إلا بعض ساقها.

ورق قلبه الكبير لهما، واشتهى ـ وقد عزه النهوض ـ أن يظلا حيث يراهما، فما أخذت عينه منذ زمان طويل عاشقين كهذين على ساحل البحر الأبدى.

هذه فتاة حرة، عارية الرأس، ، ممشوقة القوام، جميلة الهندام، انظر يا جبران، إلى هذه اليد البضة الصغيرة التى تريحها على كتف حبيبها. . تأمل بنانها وجمال هذا الإبهام، ومرونة هذا الرسغ، وحسن هاتين الساقين. . ورأسها المرفوع فوق هذا العنق الأسطع، والخصل الملتوية، التى كأنما يومض فيها ألف نجم ونجم . الله تعالى هو الذى أبدع هذا الشعر، لا الحلاقون. والشمس هى التى غذته بنورها، هكذا كانت صغيرة.

والفتى الواقف إلى جانبها أهل لها، ما فى هذا شك؛ طويل عريض معتدل القامة، وقوى متين، رجل، رجل كما ينبغى أن يكون الرجل، تأمل ذراعيه وكتفيه وصدره الواسع العميق. . ورأسه العارى أيضا، يعتدل فوق كتفيه، وعينه صريحة، ووجه ناطق بالنبل والخير؛ فهى معه فى أمان من المخاوف، رجل صريح قوى القلب وفى، كلا، لا يتغير مثل هذا لعزته، كما لا يتغير

البحر الذى ينظران إليه .

وسر جبران وشرح صدره أن حمدى تناول راحة محاسن، ورفعها إلى شفتيه، ولثم بنانها، ثم قعدا وظهراهما إلى جبران المعجب المغتبط وعيونهما على البحر الذى يحبه حبا جمًا .

وقال حمدى : «هذا ما لم أكن أجرؤ حتى أن أحلم به»!

قالت ـ التى لو سئل عنها جبران، وهو يرمقها؛ لقال : إنها خلقت أحسن مما يقول من يصف ـ : «ولا أنا كنت أحلم بهذا، ولكنى من فرط السعادة أخشى . . . » .

قال : «لا تخشى شيئا . . سنتزوج . . الساعة إذا شئت . . ما عليك إلا أن تأمرى؛ فأجىء بمأذون، فما أظن إلا أن هاهنا مأذونا» .

قالت : «كلا . . ليس الآن . . أقول لك الحق !إنى لا أدرى ماذا ينبغى أن أصنع . . ولا أكتمك أنى . . . تعلم ما أعنى . . ولماذا لا أفصح؟! إنى أحبك، وأخشى أن تطير منى . . أخشى من هذا الحب أن يقصيك عنى . . ولكنى أحسب أن التريث أولى . . لا من أجلى أو أجلك، ولا من أجل أبى . . بل . . . الحقيقة أنى لا أدرى من أجل من . . لا تضحك منى؛ فإن هذا أول حب لى، وأحسبها أول حيرة أيضا، لا ليست قول حيرة، ولكنها أول حيرة سارة»!

قال : «لا داعى للحيرة، ألسنا قد اتفقنا؟» .

قالت : «وماذا تنوى أن تصنع مع . . . »؟!

قال: «مع التى تزوجتنى؟ لا شىء، وماذا عسى أن أصنع؟ هى التى بيدها الأمر؛ فلتفعل ما تشاء، وليس يسعها أكثر من تطليقى. واخجلتاه! ولكنك تعذريننى؟ أرجو ألا تحتقرينى».

وتناول كفها بين كفيه، وهى تبتسم له ابتسام العطف والفهم ومضى هو فى كلامه، فقال: «إنها ما اتخذتنى إلا تكأة.. وجعلت الأمر بيدها؛ لتكون حرة حينما تريد، وليست بحريصة على، فما كنت زوجها إلا بالاسم، ولا عرفتها كما يعرف الرجل امرأته، ولا عبأت هى شيئًا بقرارى، أو لعله ينبغى أن أقول «نشوزى» فإنى - وأنا الرجل - أصبحت فى مكان المرأة المستعصية الكارهة النافرة»! وضحك، ثم قال: «لا أخشى على كل حال، أن تطلبنى إلى محل الطاعة»!

فقالت محاسن: «لماذا هذه المرارة؟! أرجو ألا تحمل على نفسك هذه الحملة، كان ما كان، فليكن أيضا ما يكون، عدنى أن لا تفكر على هذا النحو أبدا».

فوعدها، ونهضت، فهم بالنهوض، فلمست كتفه وأومأت إليه أن يبقى، وقالت: «سأسبقك، ودعنى نصف ساعة، ثم الحق بى».

وكانت هذه أول مرة تزينت فيها محاسن لحبيب، فلما صعد إليها حمدى ورآها؛ وقف، كأنما صده شىء، وفتح فمه من الدهشة، وندت عنه «آهة» إعجاب بحسنها، وكانت فى ثوب أبيض من الحرير، مطرز بفصوص من خرز بنفسجى، ومفتوح الجيب، يكشف عن أعلى الصدر والظهر، وحول جيدها عقد من

اللؤلؤ زاده رقة ونصاعة، وفى أذنيها قرطان ـ من لؤلؤ أيضا ـ وفى شعرها هلال مكلل بفصوص من شتى الألوان على هيئة النجوم، وعلى يمناها سوار مفتول من فضة. وطاف برأسها وهى تضع هذه الحلى، أنها بعض ما أهدى إليها نسيم!

ودنت منه، ولصقت به؛ حتى لشعر بدقات قلبها السريعة، فجمعها بين ذراعيه، وضمها إليه بقوة، فطوقت عنقه بيديها وتعلقت به وثنت رأسه إليها، فالتقت الشفاه فى قبلة حارة تركتهما ينتفضان، فحملها على يديه كأنها طاقة زهر، ومضى بها إلى الطارقة، وقعد وهى فى حجرة.

وهمس فى أذنها: «هل تعلمين أنك من وزن الريشة؟!».

فضحكت، وثنت إليه وجهها واستدارت شفتاها للقبل.

(٢)

وكل شىء فى هذه الدنيا، اتفاق، أو حظوظ وقسم. وقلما يغنى التدبير والسعى والطلب غناء المصادفة، وما أكثر ما «تأتى المقيم، وما سعى حاجاته. عدد الحصى، ويجيب سعى الطالب» وقد سعت أم سميرة سعيًا حثيثًا لتحمل سميرة على تطليق زوجها، أو معاشرته معاشرة الأزواج، بعد أن طاشت، وتسرعت، وسلكت سلوك المأفون الأخرق، فما كان لكل هذا داع. وكان فى وسعها أن تنأى عن محمود دون أن تتزوج غيره، وأن تصرفه وهى خافضة وادعة، فإن جهد النفس واحد، وما

تتجشم من مرارة القطيعة لا يختلف فى الحالين، فأما وقد دفعتها خفة العقل والسفه إلى ما فعلت؛ فإن عليها أن تراجع نفسها وتشاور عقلها، فإما أن تحيا حياة طبيعية، وإما أن تكف عن هذا العبث الذى تتكلفه وتضيف به عذابا إلى عذاب، وتفىء إلى ما هو أشد وأولى بأن يبلغها سؤلها، فما من شك فى أن محمودا انتسخ أمله وقنط لما رآها تزوجت. ولعله زاد نفوراً لما علم أنها جعلت العصمة فى يدها؛ فإنه شاب فيه إباء مر، وله خلق وعر، وقد كان يثقل عليه أن لها مالا، فلا بد أنه كره منها أن تستعلى على الرجال، ولكنه خليق إذا علم أنها أصبحت حرة طليقة غير موثقة، وإن كان الزمام فى يدها ـ أن تخايله صورتها، ويعاوده طيفها، وتمثلها المنى لقلبه بعد أن أشاح بوجهه عنها يأسًا منها، فما يموت الحب هكذا، ولو كان لهو ساعة؛ لبقيت له بذكراه نوطة فى القلب وعلوق بالضمير، وما تنقصه إلا قدحة زناد تطير شرارة ترده مسجورا، والأرجح أن محمودا حانى الجوانح والقلب على حبه، مهما حدث، ما حدث ولعله يتجلد ويعاند، ويكابر، ونفسه ـ وهو يدرى أو لا يدرى ـ موكلة بسميرة، مملوءة من حبها، وعسى أن تكون ما زالت عنده مرعى الأمانى، ورضى النفس، وحسب الهوى، يراها بالود وإن لم يرها بالعين، ويدنيها الفكر المفجوع حتى تتراءى له توهمًا. ولكن هذا كله يظل عليه شقوة لهما كليهما، ما دامت موثقة بهذا الوثاق السخيف، وإن كليهما لمحل عما هو حقه، فإما أن تسكن سميرة إلى الواقع الذى اختارته بفساد عقلها ونزقها، وإما أن تتنكب لتهيئ فرصة جديدة لمحمود ولنفسها.

ولكن منطق الأم الحكيمة المجربة، لم يقنع سميرة التى كبر عليها أن تقر بالغلط ،بل بالنزق والخفة؛ فظلت معاندة جامحة.

وكان محمود قد كف عن حضور السباق؛ مخافة أن يلتقى فى حلبته بسميرة؛ فتهيج حرقاته، ويصدر عنه مالا يحمد أو يليق. ثم ألحق بخدمة الحكومة وصار ذا وظيفة، فرد البطاقة إلى الصحيفة التى كان يكتب إليها مكتفيًا بالاعتذار بأن «صاحب بالين كذاب» ولم تكن الوظيفة تستنفد وقته أو مجهود شبابه، إنما كان يخشى السباق ـ كما قلنا ـ فيتفق أن تكون سميرة هناك، وحينئذ! ماذا يصنع؟! يتحمل؟! يغضى؟! يظهر الفتور وقلة الاكتراث؟! يحييها؟! يجتنبها؟! وهى، ماذا عساها تصنع؟!

ثم خطب غيرها، فصنع كما صنعت، وإن كانت هى البادئة، والبادئ أظلم، ولا جناح عليه، ولكنه يحسن أن تطوى تلك الصفحة القديمة طيًا ليس له من نشر، ولما لم يكتب له أن يكون مع محاسن أكثر توفيقًا؛ كفر بالمرأة، واعتقد أنها مبنية على الغدر، وأنها حول قلب لا وفاء لها ولا عهد، وإن من الخير أن يظل حياته مستفردا واحدا.

وصار يتسلى عما ساءه من زمانه بالاختلاف مع إخوانه إلى المراقص ودور اللهو الأخرى، إلى أن كان يوم أقيمت فيه حفلة راقصة؛ لمساعدة معهد خيرى، فذهب مع صاحب له، فانتحيا ناحية وراحا يرمقان الناس، والنساء على الخصوص؛ فما كان بين الرجال تفاوت يذكر. وكلهم يرتدى ثياب السهرة، أما النساء فكانت ثيابهن وزينتهن معرض أزياء وأذواق.

وإنه لجالس يدير عينه فى هذا الحشد الذى لا يسكن إلا ليموج؛ وإذا بسميرة داخلة على ذراع فتى وسيم يشق بها الجميع ويقبل على الناحية التى هو فيها، وكانت مرتفعة بضع درجات، فكأنما شك فى خاصرته سيف؛ فانتفض واقفًا، واندفع هاربا بغير تفكير، فعلقت قدمه بطرف البساط ؛فانكب على وجهه، وهو على الدرجات، وأصابت سن إحداها ساقه، فهاضتها؛ فبقى منطرحا لا يقدر على حركة.

وكان صاحبه قد دهش، ثم أفاق، فلما رآه طريحا خف إليه، وكان خلق كثير قد اجتمع حوله، وحف به، فجعل صاحبه يدفع الناس ويفرقهم عنه، حتى وصل إليه. فألفى سميرة ـ وإن كان لا يعرف أن اسمها سميرة ـ جاثية على ركبتيها، وقد أحاطت ظهره بيسراها وأراحت رأسه على صدرها، وهى تدعو الناس ـ وتشير إليهم بيمناها ـ أن يتفرقوا؛ ليتنفس.

وجثا صاحبه مثل جثوها، وقال وهو يمد يديه ليرفعه عن صدرها: «عنك يا هانم، وشكرا لك».

قالت: «لا لا لا. . هذا شأنى أنا، ما شأنك أنت. . اذهب عنا، تعال يا نسيم، واحمله معى».

قال صاحبه: «إنى معه وأنا صديقه»!

قالت: «قلت لك إن هذا شأنى أنا. . ألا تفهم. . تعال يا نسيم».

فدنا منهما نسيم وقال: «بل هو شأن الإسعاف الذى يمثل آل

نسيم روحه فى كل موقف يدعو إليه . . . »، وأشار إلى خادمين واقفين ينظران مع الناظرين، ويزيدان الزحام الضيق، ولا يصنعان شيئًا وقال: «إن وقفتكما جميلة! ولكنى مضطر أن أحرم الجمهور جمال هذا المنظر، فهل لكما أن تتفضلا بمعاونتى على حمله إلى السيارة. . شكرا. . لم يخب أملى فى شهامتكما».

وحملوه برفق إلى السيارة، وكانت سميرة لفرط اضطرابها تعترض طريقهم وتدور حولهم، وتسير مرة أمامهم، ومرة خلفهم، وتارة عن يمينهم، وأخرى عن يسارهم، كالكلب الوفى؛ حتى أرقدوه فى السيارة وقعد على الأرض فيها، معه نسيم، واتخذت هى مقعد القيادة، وانطلقت إلى بيتها، وخلفت صاحبه على الرصيف فاغرا فمه كالأبله.

ولما بلغوا البيت؛ تركت السيارة ومن فيها، وذهبت تعدو إلى أمها حتى إذا لقيتها؛ صاحت بها: «وجدته. . وجدته. . »!

فقالت لها أمها: «وجدته؟! من عسى أن يكون هذا؟»!

وكان لها عذرها إذا لم تفهم! فما كانت اطلعت على الغيب.

فقالت سميرة: «ومن عسى أن يكون سواه؟!».

قالت الأم: «حلمك إن الله مع الصابرين. . ألا تقولين؟!».

قالت سميرة: «صابرين؟! أهذا وقت الصبر، وهو مكسور فى السيارة»!

فضحكت الأم وقالت: «وجدته. . وليس هذا وقت الصبر؛

لأنه مكسور فى السيارة». ومع ذلك تتركه وتجىء تتكلم بما لا يفهم طيب!

ونهضت الأم، ودعت الخدم وأمرتهم أن يحملوا «المكسور» وأمرت وصيفتها أن تعد له غرفة، وقصدت إلى التليفون فدعت طبيبا.

وكان محمود لا يزال فيما يشبه الغيبوبة؛ من الألم الحاد، والذهول واعتلاج العواطف فى صدره الذى صار كالخضم، فكان ينظر ولا يكاد يدرك ما يجرى وما يصنع به، ولكنه كالمدار به، لا قدرة له على قول أو عمل.

ورأته الأم؛ فابتسمت وهزت رأسها، وقالت لنفسها: «ما أقل غناء التدبير»!

وقال لها نسيم: «يا سيدتى، كونى منصفة، ألا أستحق ـ على الأقل ـ فنجانا من القهوة، ودعى الشكر، وإن كنت أهلا له، وليست هذه ساعته على كل حال، على أنى بذكائى المعهود، وفراستى التى لا أظنك إلا معترفة بأنها صادقة ـ أرى أنى سأكون أهلاً لشكر أعظم.. فى أوانه، وما أرى أوانه إلا قريبا.. أى نعم».

فقالت الأم: «ماذا تقول؟ عن أى شىء تتكلم؟ ومن أنت أولا؟»!

قال: «لكل سؤال جوابه عندى: فأنا ـ ولا فخر ـ نسيم، رفيق السهرة المنبوذ أو المنسى بعد أن وجد العصفور عشه، فهل اقتنعت

الآن بما وصفت لك من ذكائى؟! أما ماذا أقول، فأظن أنك سمعتيه، ولا بأس مع ذلك من الإعادة؛ فقد تكون فيها إفادة، نعم، سمعتينى يا سيدتى أقول: إنى أستحق فنجان قهوة؛ بما قدمت من معونة مشكورة على رد العصفور إلى قفصه.

قالت: «آه . . فهمت، لماذا لم تقل هذا من الأول؟!».

قال: «معذرة، إذا كنت قد وثبت إلى النهاية وتخطيت البداية، وهذه آفة آل نسيم جميعاً. كلهم وثاب الذهن كما ترين. . ولكنى أرى جرسًا يتدلى من هذه النجفة البعيدة، فحبذا لو ضغطت زره بإصبعين من يدك الجميلة».

وكانت سميرة، فى أثناء ذلك قاعدة على السرير الذى أرقدوا عليه محموداً، وكانت لاتنفك تحنو عليه وتقبل ما بين عينيه وجبينه وخديه ورأسه حتى أذنيه وأنفه، وكلما هم بكلام، وضعت راحتها على فمه لتمنعه، وكلما أدار وجهه؛ ردته إليها برفق وعادت إلى التقبيل والتنهد والتشهد.

وأخيراً ابتسم. . لم يسعه إلا أن يبتسم، وقد هدأ الثبج المربد والموج المعتلج، وتسنى أن تبصر عين الضمير ما كان اصطخاب الأواذى يحجبه ويطويه.

وقالت له: «لن أدعك تفر منى مرة أخرى، والحمد لله على ما أصابك؛ فلن تستطيع أن تغافلنى وتهرب»!

فهم بأن يقول: إنه لم يكن هو الذى فر منها، ولكنه عدل عن الجدل والخلاف فى مثل هذه الساعة، وأشار إلى فمه، فمالت

عليه، وأراحت صدرها على صدره، وضمته وقبلته.

فلم يزد على أن قال آه. . من حلاوة القبلة، ورضى النفس.

وكانت أم سميرة قد بقيت مع نسيم ولم تصعد؛ لتتيح للشتيتين أطول اجتماع، وعرفت منه أن أخته من صديقات سميرة، واستطاعت بعد عناء أن تقف على ما وقع؛ فقد كان لايفتأ يحاورها ويداورها.

قالت له أخيرًا: «لماذا تتكلف هذا الأسلوب؟ أتراك خاب لك أمل؟!».

قال: «آل نسيم يخيب لهم أمل؟! كلا. . إنما يخيب أمل من يخيب فيه أملهم».

قالت: «إنك تدوخنى، فلماذا لا تتكلم كخلق الله؟!».

قال: «سمعًا وطاعة، وسترين أنى أقدر على هذا أيضًا. وهاك مثالا: أظن أن القادم هو الدكتور».

وكان هذا صحيحًا.

وقال الدكتور لنسيم بعد أن سلم وعرف ما دعى له:

«ألا تصحبنى؟».

قال نسيم: «كلا، بل تصعد وحدك، ولا تخف؛ فإنى هنا».

فألقى إليه الطبيب نظرة مبتسمة، وصعد.

* * *

لو درت محاسن بما حاق براتب بك بعدها ؛ لكان أول ما هو خليق أن يجرى لها بخاطر ـ أن الله قد انتقم لها من هذا الظلوم الشرس الطويل اللسان ، ثم لكانت حرية أن تبتسم ويدركها عليه العطف ، وتقول «مسكين» .

ذلك أن راتب بك ، انحدر ضحى نهار مشمس من أيام الربيع ، يزينه زهر حديقته ، فلولا أن هذا مستحيل ـ فى مصر على الأقل ، وفى القاهرة على وجه أخص ـ لقلنا مع أبى تمام : إنه كان يبدو ـ النهار لا راتب بك ـ «كأنما هو مقمر» .

وكان راتب بك ، يدير عصاه ، وينفخ الدخان ووجهه إلى السماء ، و«السيجار» الغليظ بين أصبعين من يده ، ليسا أقل غلظًا ، ولكنه لم يكن يشعر بالرضى المعتاد عن نفسه وعن الدنيا ، وخيل إليه ـ وهو يدخل فى السيارة ـ أن فطوره فى هذا الصباح لم يكن مريئًا ، بل كان بشعًا ، عسر الابتلاع ، كأنما كان بغير إدام أو كان فيه حصى ، وأن القهوة أيضًا ، كانت لها زهومة ، كأنما كانت قد خلطت بشحم .

ولم يستغرب أن لا يشعر بقضض الطعام ، وزهومة القهوة ، إلا بعد أن أكل وشبع ، وارتوى بعد تضلع ، وأتى على نصف السيجار الأسود ـ أو البنى ـ الغليظ . وإنما كان يستغرب ـ وهو مضطجع فى سيارته الفخمة ـ أنه يشعر بامتلاء غير معهود ولا معقول ، إذا اعتبرنا سخطه على طعامه فى هذاالصباح . وهو امتلاء يمنع أن يواصل التفكير المنتظم فيما كان يشغله مذ فتح عينه على النهار .

ودخل مكتبه «ممتلئًا» وكان عهده بنفسه أنه يدخل «منتفخًا» و «النفخة» ولو كانت كذابة ـ تفيده لذة، أما هذا «الامتلاء» فلا يفيده إلا كربًا واضطرابًا وارتباكًا.

وانحط على كرسيه الدوار، وما كاد يفعل حتى زوى ما بين عينيه، وأرسل يده تحته تتحسس، وكان مقعد الكرسى من خيزران، فأنى له هذه الوثارة والطراوة، كأنما طرحت عليه وسادة؟!

ورد الكرسى ـ دفعة إلى الخلف بفخذيه ـ ونهض واقفًا، وذهبت يداه تتحسسان بدنه، ثم رفع إحدى قدميه، ودس يده فى ساق البنطلون؛ فلمست شيئا ما كان ينبغى أن يكون هناك، فما اعتاد أن يرتدى تحت البنطلون سوى السراويل القصيرة الساقين. ووقفت هنيهة، ويده مدسوسة تحت الساق، وفمه فاغر، وعيناه شاخصتان، لا تطرفان؛ من فرط الدهشة.

ثم استوى واقفًا وأعمل يديه ـ بلا تفكير ـ فى أزرار البنطلون يفكها بسرعة، فكان ما خاف أن يكون، ذلك أنه نسى أن يخلع المنامة ـ البيجامة ـ فارتدى البنطلون فوقها! وأوسع نفسه ذما ولعنا، وهو يخرج رجليه من الساقين، ويلقى بالبنطلون على المكتب، ريثما يخلع سراويل المنامة.

ولو أن الله كان قد أراد به خيرا؛ لفكر قليلا قبل أن يفعل ذلك، أو لخطر بباله، إما أن يتجلد ويصبر على أن يكون بنطلونه محشوا بأكثر من جذعه حتى يئوب إلى بيته؛ فيصنع بثيابه ما شاء، ويطرح عن يديه منها ما يكره، وإما أن يتحول إلى الحمام،

فيوصده على نفسه ويفعل ما هو فاعل فى مكتبه بغير عقل، ومن غير أن يكلف نفسه أن يستوثق من الباب.

وصحيح أن هذه غرفته الخاصة، وأن بابها غير مفتوح، وأنه لا يدخل عليه فيها داخل بغير استئذان، ولكنها ليست حصنا منيعا لا ينال، وآية ذلك أن الآنسة «ريا» التى حلت محل محاسن، فتحت الباب بخفة، ثم ردته برفق، ودخلت تمشى على أطراف أصابعها ـ أو ذنابة حذائها الدقيق ـ وعلى ذراعها طائفة من الأوراق وبين أصبعيها قلم، وعلى فمها ـ وفى عينيها ـ ابتسامة خفيفة، وتمهيداً لتحية اللسان.

ولم تخط سوى خطوتين اثنتين، أو خطوة ونصف خطوة، فقد ظلت قدمها اليسرى متخلفة ـ رأس حذائها على الأرض وكعبه مرفوع فى الهواء ـ وغاضت الابتسامة، وثبت الحملاق، وتدانى ما بين الجفون، وما بين خطى الجبين أيضًا، وتحركت الشفتان بكلام لم يتبينه راتب بك، ولكنه سمع صوته؛ فرفع رأسه مرتاعا، وهوى شخصه؛ فغاب فى الفضاء القليل بين الكرسى والمكتب ـ ما خلا رأسه فقد ظل فوق خط الماء ـ وصاح: «اخرجى! اخرجى! ألا ترين أن هذا ليس وقت الدخول»!

قالت بهدوء: «إنى أرى كثيراً مما لم أكن أتوقع أن أراه، فقد سلبنى ما رأيت الإرادة أو القدرة على الحركة».

فعاد يصيح: «أقول لك، اخرجى! ألا تسمعين؟ ماذا يقول الناس إذا دخل داخل ووجدك هنا؟»!

قالت: «لا تخف على، فإنهم سيقولون فيك أولا».

وأحس راتب بك، أن هذا الشطر من المنامة قد تدلى إلى قدميه، واختلطت جملته بهما؛ فشرع يرفع قدما بعد قدم ليخرجهما ويخلصهما، عبثا؛ فقد كانت الحركة غير ميسورة وهو قاعد القرفصاء برغمه، وفخذاه إلى بطنه ويداه على ركبتيه.

وأتعبه تكلفه حركة ليست في خير الأحوال بالهينة، فكيف على طرف المكتب، فضاق صدره وانطلق لسانه يقول: «ألا تنوين أن تخرجى؟! ماذا عسى أن يقول الناس؟»!

وكانت «ريا» فتاة خبيثة، تحسن اغتنام الفرص اللائحة، فقالت: «إنهم خليقون أن يقولوا إنك دعوتنى لشهود هذا المنظر وآثرتنى به في غرفتك الخاصة».

فكاد عقله يطير وزعق: «امشى! اخرجى، فأنت مطرودة»!

قالت: «صحيح؟! وما قولك في أن أصيح كصياحك، وأخرج كالقنبلة، وأجمع موظفى الشركة عليك؟!».

وكانت وهى تقول ذلك تبدو لراتب بك، كأنها تستحلى الكلام، وتستطيب المنظر الذى رسمت له خطوطه الكبرى، وتركت له العناية بالتفاصيل.

قال بصوت ضعيف: «أعوذ بالله منك! طيب اخرجى فلن أطردك، ودعينى أفعل ما أنا فاعل»!

قالت ببرود: «وهذه الأوراق؟!».

فأسعفه صوته وصاح : «أهذا وقته؟! سبحان الله العظيم»!

قالت : «سؤال قبل أن أخرج . . لماذا لبست المنامة تحت البنطلون؟!» .

قال : «لا أدرى . . وما شأنك أنت؟ أقول لك اخرجى!» .

قالت : «إنه منظر لا تراه الواحدة منا كل يوم . . وفى شركة تجارية، ومكتب كهذا» .

فقال محتجا : «هل يتصور عقلك الوسخ أن هذه عادة لى؟!» .

قالت : «يحسن أن لا تعتادها» .

وخرجت بخفة كما دخلت، وردت الباب وراءها، فنهض الرجل وأتم ما كان بدأ، ولعن نفسه والوجه الذى أصبح عليه فى يومه، وجرأة «ريا» وقلة أدبها، وحدث نفسه أنه سيلقى منها ويلا، وطوى المنامة ورمى بها ـ لقلة عقله مرة أخرى ـ فى سلة الورق المهمل .

ودق الجرس، فدخلت عليه «ريا »مرة أخرى، فألفته جالسا إلى مكتبه على عادته ، فقالت : «هذا أحسن» .

وهم بأن يزجرها عن العود إلى الموضوع، ولكن فراش المكتب دخل فى هذه اللحظة بالصينية وعليها كوب ماء بارد وفنجان قهوة ووضعها على المكتب، ودار لينصرف؛ فلمحت عينه المنامة ، فانحنى ومد يده فأخرجها ورفعها وتأمل ألوانها الزاهية، ولمسها وفركها بأصابعه وهز رأسه معجبا بحريرها الطبيعى النفيس ثم حول وجهه إلى راتب بك ، وسأله : «هل هذه لك يا بك؟» .

وكـان راتب بك قـد غض بصـره؛ عـجـزا منه عن النظر إلى الفـراش وهو يقلب المنامـة أو شطرها الأسـفل؛ أطرق وأبقى عـينه على المكتب، فقال: «لا» ولم يرفع رأسه.

قـال الفـراش: «ومـاذا جاء بـهـا إلى هنا؟! لقـد كنست المكتب ونظفته ولم تكن هذه فى السلة».

فأحس راتب بك، أن رأسه يدور؛ فقـد صار كل امرئ يجترئ عليه بالخلاف والمجادلة، حتى الفراش.

وتشـدد وقـال: «أراك لا تصـدقنى، شىء جـمـيل يا حسنين! اخـرج وارمـهـا حـيث شئت، ولا تكـلمنى فـيـهـا مـرة أخـرى.. سامع».

وانصرف الفراش، فقالت ريا: «أتظن أنك كنت حكيما؟».

فسألها راتب: ما بك «ماذا تعنين؟!».

قالت: «تركت المنامة لحسنين».

قـال: «ومـاله؟! ومـاذا أصنع بهـا. إنى لا أطيق أن أراها مـرة أخرى ولا أنت أيضا».

قـالـت: «شكرًا، ولكن مـوظفى المكتب سـيـرونـهـا الآن، وسيعرضها حسنين عليهم واحدا واحدا، ويقول لهم: إنه وجدها ملقاة فى السلة، وأنا معك».

فصاح بها مقاطعا: «ألا تخجلين؟!».

قالت: «هذا شأنى، وقد كنت أبين لك شأنك.. أنت حر».

فوضع رأسه بين يديه، وقال كمن يحدث نفسه:

«ياله من نهار أسود. ما العمل الآن؟!».

قالت: «ألا ترى أنه يحسن بك أن تكون لطيفا معى؟».

فنظر إليها نظرة ملؤها الحقد والمرارة وقال: «لطيف معك؟ أهو ذاك؟!».

قالت بهدوئها الذى لا يفارقها: «نعم، وتذهب بى مرة إلى السينما أو إلى...».

قال بلهجة الزراية: «ويرانى الناس معك.. مع مثلك؟!».

فأطرقت ريا تتدبر قوله هذا، ثم رفعت رأسها ونظرت إليه وقالت: «ولم لا؟! إنك لست دميما جدا».

فصاح: «إيه».

قالت: «لا تزعق، فما أظن بموظفيك إلا أنهم قريبون من الباب».

قال ـ بصوت خافت ـ: «إنك أوقح من رأيت فى حياتى»!

قالت: «لست أوقح منك. ألم تخلع منامتك أمام عينى؟».

قال: «ما حيلتى. أنت دخلت بلا استئذان؛ فرأيت ما رأيت. لماذا لا تدعين هذا الموضوع؟! إن عملى معطل».

قالت: «ونتغدى اليوم عند الحاتى؟».

قال «طيب. طيب».

وكانت هذه هى البداية، وهى حسب القارئ، وفيها عبرة كافية سقناها غير باخلين بها على من يطيل لسانه على البنات الطيبات!

انتهت

أعمال المازنى

١ ـ ديوان المازنى (الجزء الأول)، شعر، ١٩١٣.

٢ ـ شعر حافظ، نقد، ١٩١٥.

٣ ـ الشعر: غاياته ووسائطه، نقد، ١٩١٥.

٤ ـ ديوان المازنى (الجزء الثانى)، شعر، ١٩١٧.

٥ ـ الديوان فى الأدب والنقد، نقد، ١٩٢١ (مع العقاد وعبد الرحمن شكرى).

٦ ـ حصاد الهشيم، مقالات قصصية، ١٩٢٤.

٧ ـ قبض الريح، مقالات قصصية، ١٩٢٩.

٨ ـ صندوق الدنيا، مقالات قصصية، ١٩٢٩.

٩ ـ رحلة إلى الحجاز، أدب رحلات، ١٩٣٠.

١٠ ـ إبراهيم الكاتب، رواية، ١٩٣١.

١١ ـ غريزة المرأة أو حكم الطاعة، مسرحية، ١٩٣٢.

١٢ ـ خيوط العنكبوت، مقالات قصصية، ١٩٣٥.

١٣ ـ فى الطريق، مقالات قصصية، ١٩٣٧.

١٤ ـ إبراهيم الثانى، رواية، ١٩٤٣.

١٥ ـ ثلاثة رجال وامرأة، رواية، ١٩٤٣.

١٦ ـ عود على بدء، رواية، ١٩٤٣.

١٧ ـ ميدو وشركاه، رواية، ١٩٤٣.

١٨ ـ ع الماشى، مقالات قصصية ١٩٤٤.

١٩ ـ بشار بن برد، نقد، ١٩٤٤.

٢٠ ـ من النافذة، مقالات قصصية، ١٩٤٩.

٢١ ـ أحاديث المازنى، مقالات قصصية، ١٩٦١.

٢٢ ـ مختارات من أدب المازنى، مقالات قصصية، ١٩٦١.

٢٣ ـ ديوان المازنى (الجزء الثالث)، شعر، ١٩٦١.

٢٤ ـ قصة حياة، سيرة ذاتية، ١٩٦١.

٢٥ ـ سبيل الحياة، مقالات قصصية، ١٩٦٢.

ثلاثة رجال وامرأة

••••••••••••••••••••••••

رواية رائعة ومثيرة، بطلتها فتاة ذات جمال آسر، وحيرتها بين ثلاثة رجال: «حليم» الذى كان الرجل الأول فى حياتها. و«نسيم» رجلها الثانى الذى أبدى لها حبًا أدخلهما فى حيرة بالغة. وفى إحدى رحلاتها إلى الثغر لتتخذ قرارا بشأن علاقتها بنسيم تلتقى برجلها الثالث «حمدى»، الذى يلخص حلمها فى الرجال.

••••••••••••••••••••••••

إبراهيم عبد القادر المازنى (١٨٨٩ - ١٩٤٩)

واحد من الآباء المؤسسين للكتابة العربية الحديثة؛ شعرًا ورواية وصحافة ونقدًا وترجمة. أسس مع العقاد وعبد الرحمن شكرى «**جماعة الديوان**» الأدبية للدفاع عن المعاصرة فى مواجهة الأدب الكلاسيكى. ونشر مقالاته الممتعة بسخريتها اللاذعة على صفحات أهم جرائد عصره. عمل رئيسًا لتحرير أكثر من جريدة، كما انتخب وكيلًا لمجلس نقابة الصحفيين، وعضوًا بمجمع اللغة العربية.

••••••••••••••••••••••••

التصميم عمرو الكفراوى

6 221102 002608

دار الشروق
www.shorouk.com